جواهر البيان
في
تناسب سور القرآن

لأبي الفضل عبد الله محمد الصديق الغماري الحسني
عفا الله عنه

وعليه

« تعليقات لمؤلفه »

يطلب من
مكتبة القاهرة
لصاحبها : علي يوسف سليمان
شارع الصنادقية : ميدان الأزهر بمصر

مطبعة
محمد عاطف وسيد طه دشت كامل
شارع كاوست بك حارة الوطن رقم ٤ ت ٩٠٤٩٩٤

علم التناسُب للسوَرْ علم جليل ذو خطرْ
قد قلَّ فيه الكاتبون كما قد عزَّ المُستطَرْ
وابن الزبير في برهانه قد كان أول من سطَرْ
إذ جاء فيه مجلِّياً يتلوه بحر قد زخَرْ
أعنى السيوطيَّ الذى كتب التناسقَ للدُّررْ
وكتبتُ مثلَ كتابهم بحثا يؤيِّده النظرْ
أعملتُ فيه قريحتى وتخيَّرت أنسبَ الفكَرْ
وفتحتُ بعضَ المُغْلقَات من آيِ الكتاب ومن سُور
وأتيتُ من عين المسا ئل بالبدائع والغُرَر
أُلهمتُ من فيض الإلـ ـهِ بفيض فضل مُدَّخَرْ
حمداً لواهب فضله وله التطوُّلُ إذ سترْ
وصلاتُه دَوْماً على خَير البرِيةِ من مُضرْ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل كتابه هدى ورحمة ، وجعله شفاء ونعمة . أودعه علوما وأسراراً ، وضمنه أحكاما وحكما وأخبارا . كتاب يبين طريق السعادة والشقاء ، ويرشد إلى حقائق ، يتوصل إلى كشفها - بعد بحث طويل - كبار العلماء . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى اختصه الله بمعجزة القرآن ، وفضله على جميع خلقه من ملك وإنس وجان ورضى الله عن آله وأصحابه ، وعمن تبع هديه ودخل فى زمرة أحبابه .

أما بعـد : فقد أردت - بمشيئة الله تعالى - أن أبين فى هذا الكتاب مناسبات سور القرآن الكريم بعضها لبعض ، حسب ترتيبها فى المصحف الشريف . وهذا فن عزيز ، قلّ من تعرض له من العلماء ، على كثرة من تعرض منهم لفنون القرآن المتنوعة . مثل تفسيره ، وإعرابه ، وقراءاته ، وتجويده ، واستنباط أحكامه ، وقصصه ، وغير ذلك . وسميته « جواهر البيان فى تناسب سور القرآن » والله أسأل ، وإليه بكتابه العزيز أتوسل : أن يوفقنى ويلهمنى رشدى ، وأن يفرج كربتى ، ويذهب غمى ، إنه قريب مجيب .

«مقدمة»

تشتمل على مسائل :

«الأولى»

قال الجاحظ : سمى الله تعالى كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل . سمى جملته قرآنا ، كما سموا ديوانا ، وبعضه سورة ، كقصيدة ، وبعضها آية ، كالبيت ، وآخرها فاصلة ، كقافية .

وقال ابن قتيبة : السورة تهمز ولا تُهمز ، فمن همزها جعلها من أسأرت ، أى أفضلت ، من السؤر ، وهو مابقى من الشراب فى الإناء ، كأنها قطعة من القرآن . ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم ، وسهل همزها . ومنهم من يشبهها بسورة البناء ، أى القطعة منه . وقيل : من سور المدينة ، لإحاطتها بآياتها ، واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور . ومنه السوار ، لإحاطته بالساعد . وقيل سميت سورة لارتفاعها ، لأنها كلام الله . والسورة المنزلة الرفيعة . قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة .·. ترى كل ملْك حولها يتذبذب .

وملك بسكون اللام تخفيفا . وقيل : لتركيب بعضها على بعض ،

من التسور بمعنى التصاعد والتركيب . ومنه (إذ تسوروا المحراب)هذا أصل اشتقاق كلمة السورة من حيث اللغة . وأما معناها فى الاصطلاح ، فقال الجعبرى : حد السورة : قرآن يشتمل على آى ، ذو فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات . وقال غيره : السورة : الطائفة المترجمة توقيفاً ، أى المسماة باسم خاص بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم . قال الحافظ السيوطى : وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار . قال : ومما يدل لذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة ، قال : كان المشركون يقولون : سورة البقرة ، وسورة العنكبوت ، يستهزئون بها . فنزل (إنا كفيناك المستهزئين) قلت : هذا مرسل ضعيف .

وقد يكون للسورة إسم واحد ، وهو الأصل ، وقد يكون لها أكثر ، مثل (الفاتحة) تسمى فاتحة الكتاب ، وفاتحة القرآن ، وأم الكتاب ، وأم القرآن ، والسبع المثانى ، والوافية ، والكافية ، وقد أوصل السيوطى أسماءها فى الاتقان إلى خمسة وعشرين إسما (وسورة البقرة)ثبت تسميتها سنام القرآن فى حديث عند الحاكم . وورد تسميتها فسطاط القرآن فى حديث ضعيف وسميت هى وآل عمران بالزهراوين فى حديث صحيح . (والمائدة) تسمى العقود . (والأنفال) قال ابن عباس : سورة بدر (والتوبة) تسمى براءة ، والفاضحة ، وسورة العذاب ، والمقشقشة ،

والمنقرة ، والبحوث ، بفتح الباء ، والمثيرة ، والمبعثرة ، والحافرة، لأنها فضحت المنافقين ، وكانت عذابا عليهم ، وبرأت من النفاق ، ونقرت عما فى قلوب المنافقين ، وبحثت عن أسرارهم ، وأثارتها،وبعثرت عنها ، وحفرت عنهم (والنحل) تسمى سورة النعم (والاسراء) تسمى سورة سبحان وبنى إسرائيل (وطه) تسمى سورة الكليم (والشعراء) وقع فى تفسير الإمام مالك تسميتها بسورة الجامعة (والنمل) تسمى سورة سليمان (والسجدة) تسمى سورة المضاجع (وفاطر) تسمى سورة الملائكة (ويس) سميت فى حديث يأتى قلب القرآن (والصافات) تسمى سورة الذبيح (وص) تسمى سورة داود (والزمر) تسمى سورة الغرف (وغافر) تسمى سورة الطول والمؤمن (وفصلت) تسمى سورة السجدة وسورة المصابيح (والجاثية) تسمى سورة الشريعة وسورة الدهر (واقتربت) سورة القمر (والرحمن) سميت فى حديث يأتى عروس القرآن(والمجادلة) سميت فى مصحف أبى بن كعب سورة الظهار (والحشر) قال ابن عباس: سورة بنى النضير(والصف) سورة الحواريين (والطلاق) قال ابن مسعود : سورة النساء القصرى (والملك) سورة تبارك والمانعة (والمعارج) سورة سأل والواقع (والنبأ) سورة عم والتساؤل والمعصرات (والبينة) سورة القيمة ، ولم يكن ، والبرية ، والانفكاك ، وسميت فى مصحف أبى بن كعب سورة أهل الكتاب (والماعون) سورة أرأيت ،

والدين (والكافرون) سورة العبادة . وتسمى المقشقشة (والنصر) سورة التوديع (وتبت) سورة المسد (والاخلاص) سورة الأساس .

« الثانيـــة »

الصحيح عند عامة السلف أن ترتيب السور توقيفى ، بمعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم تلقاه عن جبريل عليه السلام ، وتلقاه عنه الصحابة . قال عبد الله بن وهب : سمعت مالكا يقول : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال البغوى فى شرح السنة : الصحابة رضى الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئا خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته ، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو الآن فى مصاحفنا ، بتوقيف جبريل إياه على ذلك ، وإعلامه عند نزول كل آية : أن هذه الآية تكتب عقب كذا فى سورة كذا ، فثبت أن سعى الصحابة كان فى جمعه فى موضع واحد ، لا فى ترتيبه ، فإن القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب ، أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ، ثم كان ينزله مفرقا عند الحاجة ، وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة . وقال

ابن الحصار : ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها ، إنما كان بالوحى ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا . وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف . وقال أبو بكر بن الأنبارى فى كتاب « الرد على من خالف مصحف عثمان » : إن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا ، ثم فرقه على النبى صلى الله عليه وسلم فى بضع وعشرين سنة ، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث ، والآية تنزل جواباً لمستخبر يسأل ، ويوقف جبريل النبى صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآية . فانتظام السور ، كانتظام الآيات والحروف كله عن رسول الله خاتم النبيين ، عن رب العالمين . فمن أخر سورة مقدمة ، أو قدم أخرى مؤخرة ، كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف والكلمات . ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن ، وكان جبريل عليه السلام يوقفه على مكان الآيات . وقال الكرمانى فى البرهان : ترتيب السور هكذا هو عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب ، وكان صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع

عنده منه . وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين ، وكان آخر الآيات نزولا (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدين . وقال العلامة الطيبى : أنزل القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقا على حسب المصالح ، ثم أثبت فى المصاحف على التأليف والنظم المثبت فى اللوح المحفوظ (١) .

وذهب القاضى الباقلانى فى أحد قوليه وابن فارس إلى أن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة ، ونسب إلى مالك ، ومال ابن عطية فى تفسيره إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها فى حياته صلى الله عليه

---

(١) وقال ولى الدين الملوى : قد وهم من قال : لا يطلب للآى الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المفرقة . وفصل الخطاب : أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا . فالمصحف على وفق ما فى اللوح المحفوظ : مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف ، كما أنزل جملة إلى بيت العزة . ومن المعجز البين : أسلوبه ونظمه الباهر . والذى ينبغى فى كل آية : أن يبحث أول كل شىء ، عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة . ثم المستقلة : ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففى ذلك علم جم . وهكذا فى السور ، يطلب وجه اتصالها بما قبلها ، وما سيقت له .

وسلم ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل ، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده . قال الزركشى فى البرهان : والخلاف بين الفريقين لفظى ، لأن القائل بالثانى يقول : إنه رمز إليهم ذلك ، لعلمهم بأسباب نزوله ، ومواقع كلماته . ولهذا قال مالك : إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبى صلى الله عليه وسلم . مع قوله بأن ترتيب السور باجتهاد منهم . فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولى ؟ أو بمجرد إسناد فعلى ، بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر .

وقال البيهقى فى المدخل : كان القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم مرتبا سوره وآياته على هذا الترتيب ، إلا الأنفال وبراءة ، لحديث عثمان . ومال إليه السيوطى . وحديث عثمان لادلالة فيه لما قاله كما سيأتى بحول الله تعالى .

قال أبو جعفر النحاس : المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحديث واثلة «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال» فهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه من ذلك الوقت ، وإنما جمع فى المصحف على شىء واحد ، لأنه جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأليف القرآن . قلت : لفظ حديث واثلة « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الزبور المثين ، وأعطيت مكان

الإنجيل المثانى ، وفضلت بالمفصل » رواه أحمد والطبرانى . وفى إسناده عمران بن داود القطان ، وهو وإن ضعفه يحيى بن معين وأبو داود والنسائى ، فقد وثقه عفان ومشاه أحمد ، وقال ابن عدى : هو ممن يكتب حديثه . واحتج به ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم ، فهذا الحديث حسن . قال الحافظ ابن حجر فى الفتح [١] . ومما يدل على أن ترتيبها توقيفى ما أخرجه أحمد وأبو داود عن أوس بن أبى أوس عن حذيفة الثقفى ، قال : كنت فى الوفد الذين أسلموا من ثقيف. الحديث. وفيه : فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « طرأ علىّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه » فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة ، وحزب المفصل من ق حتى نختم . قال: فهذا الحديث يدل على أن ترتيب السور على ما هو فى المصحف الآن ، كان على عهد

---

(١) إسمه : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، وهو أحسن شروحه من حيث جمع الطرق والروايات ، والجمع بين الأحاديث المختلفة . التزم ألا يذكر فيه إلا حديثا صحيحا أو حسنا ، وأن ينبه على الحديث الضعيف إذا ذكره . ولذلك تجد الحافظ السخاوى فى المقاصد الحسنة إذا نقل تضعيفا أو توهينا لحديث ، يستدرك أحيانا بقوله : لكن ذكره شيخنا فى شرح البخارى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ويحتمل أن الذى كان مرتبا حينئذ حزب المفصل خاصة ، بخلاف ما عداه . قلت : هو احتمال بعيد ، يبطله حديث واثلة ، وفى صحيح مسلم حديث « اقرؤا الزهراوين البقرة وآل عمران » وفى مصنف ابن أبى شيبة من حديث سعيد بن خالد قال : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم بالسبع الطوال فى ركعة . وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء — : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادى [1] . فذكرها نسقا كما هى فى المصحف الآن . قال الحافظ السيوطى : ومما يدل على أن ترتيب السور توقيفى كون الحواميم رتبت ولاء ، وكذا الطواسين . ولم ترتب المسبحات ولاء ، بل فصل بين سورها ، وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطس ، مع أنها أقصر منهما ، ولو كان الترتيب اجتهاديا لذكرت المسبحات ولاء ، وأخرت طس عن القصص . والخلاصة أن ترتيب السور توقيفى ، كترتيب الآيات . أما ما رواه أحمد وأصحاب السنن ، عن ابن عباس ، قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا

---

(١) بكسر التاء وفتحها ، يريد أنه أخذهن قديما بمكة ، والتلاد المال القديم الذى نشأ عند الشخص ، وتولد عنده . ويقال له : التالد أيضا . وخلافه الطارف ، وهو المال الحادث .

بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموهما فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ،فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها فى السبع الطوال. صححه ابن حبان والحاكم . فهذا لا يدل على أن عثمان رتبهما باجتهاد منه . وإنما يدل على أنه ظنهما سورة واحدة . ولهذا لم يكتب لبراءة بسملة ، وهذا رأى رآه مجاهد وأبو روق وسفيان فقالوا : الأنفال وبراءة سورة واحدة . والصحيح أن براءة سورة قائمة بنفسها ، وهو ما عليه عامة العلماء . ولم تكتب فى أولها البسملة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بكتابتها ، كما فى المستدرك للحاكم . والحكمة فى ذلك ما رواه الحاكم عن ابن عباس ، قال: سألت عليا بن أبى طالب: لم لم تكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف(١) .

---

(١) ولأنها كانت عذابا على المنافقين ، فضحتهم وكشفت أسرارهم فى صحيح البخارى عن سعيد بن جبير ، قال : قلت لابن عباس : سورة =

« تنبيه » السبع الطوال أولها البقرة وآخرها براءة ، والمئون هي السور التي تبلغ كل واحدة منها مائة آية أو تقاربها ، والمثاني ما كانت أقل من المائة ، وسميت مثاني ، لأنها ثنت المئين ، أي كانت لها ثواني ، والمئون لها أوائل . والأنفال من المثاني ، والمفصل ما ولي المثاني من قصار السور ، وأوله ق إلى الآخر .

« الثالثة »

المناسبة علم شريف عزيز ، قل اعتناء المفسرين به لدقته، واحتياجه إلى مزيد فكر وتأمل . وهو نوعان :

أحدهما : مناسبة الآي بعضها لبعض بحيث يظهر ارتباطها وتناسقها كأنها جملة واحدة . قال الإمام الرازي في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط . وذكر كثيرا من المناسبات في تفسيره المذكور . وقال ابن العربي المعافري في سراج المريدين : ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المباني . علم عظيم ، لم يتعرض له إلا عالم واحد ، عمل فيه سورة

=التوبة، قال : التوبة؟ بل هي الفاضحة، مازالت تنزل: ومنهم ، ومنهم . حتى ظننا أن لا يبقى أحد منا إلا ذكر فيها . وفي مستدرك الحاكم عن حذيفة ، قال : التي تسمون سورة التوبة ، هي سورة العذاب .

البقرة . ثم فتح الله لنافيه ، فلما لم نجد له جملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة . ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه . ولعله يقصد الشيخ أبا بكر النيسابورى ، فإنه أول من أظهر علم المناسبة ـ وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب ـ وكان يقول على الكرسى إذا قرىء عليه : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزرى على علماء بغداد ، لعدم علمهم بالمناسبة . وللبرهان البقاعى تفسير التزم فيه بيان مناسبة الآى والسور . قال فى مقدمته : وسميته : نظم الدرر فى تناسب الآى والسور ويناسب أن يسمى : فتح الرحمن فى تناسب أجزاء القرآن ، وأنسب الأسماء له : ترجمان القرآن ومبدى مناسبات الفرقان . وذكر فى كتابه الذى رد به على الحافظ السخاوى : أنه ألفه فى مدى أربع عشرة سنة . طبع منه مبحث الميسر . بنفقة مستشرق سويدى اسمه : لندبرج ، وكان يسمى نفسه عمر السويدى ، وسماه : لعب العرب بالميسر فى الجاهلية الأولى . وطبعه فى ليدن ضمن مجموعة « طرف عربية » وللحافظ السيوطى كتاب فى أسرار التنزيل . وصفه بأنه جامع لمناسبات السور والآيات ، مع ما تضمنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة ، سماه : قطف الأزهار فى كشف الأسرار . والزمخشرى يتعرض فى تفسيره لبيان مناسبة

بعض الآى، لكن الإمام الرازى أكثر تعرضا منه لبيان تلك المناسبة.
وأرجو أن يوفقنى الله إلى تأليف كتاب واسع فى هذا الموضوع.

ثانيهما: مناسبة السور بعضها لبعض، وأول من أفرد هذا النوع بالتأليف — فيما أعلم — العلامة أبو جعفر بن الزبير الأندلسى، شيخ العلامة أبى حيان، ألف كتابا سماه: البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن، ثم كتب الحافظ السيوطى كتابه: تناسق الدرر فى تناسب السور، لخصه من كتابه: قطف الأزهار السالف ذكره.

وكتابى هذا، ثالث كتاب فى هذا العلم الشريف، ألهمنيه الله وله الحمد والمنة وهو أنواع ثلاثة:

أحدها: تناسب بين السورتين فى موضوعهما، وهو الأصل والأساس.

ثانيها: تناسب بين فاتحة السورة والتى قبلها كالحواميم.

ثالثها: مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ماقبلها، مثل (وإدبار النجوم.. والنجم إذا هوى) (فجعلهم كعصف مأكول.. لإيلاف قريش)

ويوجد نوع رابع من المناسبة، وهو مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها. أفرده السيوطى بالتأليف، كتب فيه جزءاً صغيرا سماه «مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع» ويدخل فى هذا النوع «رد العجز على

الصدر » وهو من المحسنات البديعية ، وسننبه على شيء من ذلك في محله من هذا الكتاب ، والله الموفق إلى الصواب .

مناسبة ابتداء القرآن بالفاتحة

اشتملت الفاتحة على معاني عظيمة ، ومقاصد سامية ، يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ — حمد الله تعالى . ومعنى الحمد لله : الثناء على الله ، بإثبات كل كمال له سبحانه . وهذه الجملة تتضمن أمرين : الإقرار بوجود الله ، وباستحقاقه لكل كمال .

٢ — وصفه بأنه : رب العالمين . وهو يفيد الإقرار بأمرين أيضا : أن الله مالك العالمين ، وأنه يربيهم بما يصلح لكل فرد منهم ، ويمد كلا منهم بما ينفعه « (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا) .

٣ — وصفه : بالرحمن الرحيم . ومعنى الرحمن المنعم بجلائل النعم . والرحيم المنعم بدقائقها . وهذا الوصف يفيد أمرين أيضا : أن وصف الرحمة ذاتي لله تعالى كربوبيته ، وترغيب العباد في فعل ما يستجاب رحمته بهم .

٤ — وصفه بأنه ملك يوم الدين ، أي الجزاء . وهذا الوصف يفيد الإقرار بأمرين : بيوم البعث ، وبأن لله في ذلك اليوم الملك المطلق (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

٥ — تخصيص الله بالعبادة جميعها من صلاة وصوم وصدقة وحج وغيرها . وهذا مستفاد من (إياك نعبد) أى نخصك بالعبادة ، ولا نعبد غيرك ، ولا نقصد رياء فى عبادتك .

٦ — تخصيصه بطلب الإعانة منه على العبادة وغيرها من سائر الشئون . وهذا مستفاد من (إياك نستعين) أى لا نطلب الإعانة فى جميع أمورنا إلا منك .

٧ — الالتجاء إليه بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم الذى هو دين الإسلام وهذا يتضمن الإقرار بأمرين . بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وحقية ماجاء به مما يشتمل عليه الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات، وهو صراط المنعم عليهم . وببطلان صراط المغضوب عليهم والضالين ، وهم اليهود والنصارى كما ثبت فى الحديث الصحيح (١) فهذه المعانى السبعة تعتبر إجمالا لما فصله القرآن الكريم ،فمعظم السور المكية، بل جميعها تفيض فى إثبات وجود الله ووحدانيته، واتصافه بالكمالات ، وتنزهه عما يصفه به المشركون من نقائص ، واستحقاقه للعبادة ، وتفرده

---

(١) هو حديث عدى بن حاتم ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن المغضوب عليهم هم اليهود وإن الضالين هم النصارى » رواه أحمد والترمذى وحسنه . وصححه ابن حبان . وذلك أن اليهود جحدوا الحق وهم عالمون به ، فغضب الله عليهم ، والنصارى قلدوهم فضلوا .

الإعانة ومافى معناها . وإثبات النبوات ، وخاصة منها نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإثبات يوم البعث ومايليه ، إلى آخر ماهو مفصل فيها أدلته المتنوعة . والسور المدنية تشتمل على بيان الأحكام من عبادات ومعاملات ، ومواريث ، وحدود ، وعقوبات وجهاد ، وغير ذلك . فلهذه المناسبة القوية الواضحة - أعنى اشتمال الفاتحة على مجمل مافصله القرآن - ابتدىء بها ، ومن مقتضيات البلاغة تقديم الشيء مجملا . ثم تفصيله . بعد ، ليكون أوقع فى النفوس ، وأدعى لتمكنه منها .

ومناسبة أخرى للابتداء بها ، تلك هى براعة الاستهلال ، وهى إشعار المتكلم فى مفتتح كلامه بما يريد أن يفيض فيه . ولاشك أن من تدبر الفاتحة وتأمل معانيها ، أشعرته بالمعانى التى فصلتها السور بعدها . ومن المناسبات للابتداء بها : أن الله أرشد عباده إلى ابتداء مهام أمورهم بحمده تعالى ، والثناء عليه سبحانه ، ومن هنا قال العلماء : ينبغى افتتاح الأمور المهمة بالحمد ، تأسيا بصنيع القرآن العظيم . وذلك مثل خطبة الجمعة ، والعيدين ، وخطبة النكاح ، والمؤلفات العلمية . ورغب الحديث فى ذلك أيضا . ففى سنن أبى داود من حديث أبى هريرة « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع » أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

« تنبيه » روى ابن حبان والحاكم فى صحيحيهما عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبرك بأفضل القرآن

الحمد لله رب العالمين » وفى المسند من حديث عبدالله بن جابر البياض رضى الله عنه مرفوعا « ألا أخبرك بأخير سورة فى القرآن؟ الحمد لله رب العالمين » وفى صحيح البخارى عن أبى سعيد بن المعلى ، قال : كنت أصلى فى المسجد . فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم أجبه ، ثم أتيته فقلت : يارسول الله إنى كنت أصلى . فقال « ألم يقل الله تعالى (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم[1]) ؟» ثم قال « لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد» فأخذ بيدى ، فلما أردنا أن نخرج قلت: يارسول الله إنك قلت «لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن» قال « (الحمد لله رب العالمين) هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » قال ابن التين فى شرح البخارى: « لأعلمنك سورة هى أعظم سور القرآن » معناه : أن ثوابها أعظم من غيرها . وقال غيره : إنما كانت أعظم السور لأنها جمعت جميع مقاصد القرآن ، ولذلك سميت أم القرآن . روى البيهقى عن الحسن البصرى ، قال : إن الله أودع علوم الكتب السابقة فى القرآن ، ثم أودع علوم القرآن فى الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة . واختلفت عبارات العلماء فى بيان كيفية اشتمالها على علوم القرآن . نذكر منها عبارة العلامة

---

(١) أخذ منه المالكية : أن المسلم تجب عليه إجابة النبى صلى الله عليه وسلم إذا دعاه ولو كان فى الصلاة ولا تبطل صلاته .

الطيبي ، قال رحمه الله تعالى : هي مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين :

أحدها : علم الأصول ، ومعاقده : معرفة الله تعالى وصفاته ، وإليها الإشارة بقوله (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) ومعرفة النبوة ، هي المراد بقوله (أنعمت عليهم) ومعرفة المعاد ، وهو الموحى إليه بقوله ملك يوم الدين) .

وثانيها : علم الفروع ، وأسه العبادات . وهو المراد بقوله (إياك نعبد) .

وثالثها : علم مايحصل به الكمال ، وهو علم الأخلاق ، وأجمله الوصول إلى الحضرة الصمدانية ، والإلتجاء إلى جناب الفردانية ، والسلوك لطريقه ، والإستقامة فيها ، وإليه الإشارة بقوله (وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم).

ورابعها : علم القصص والأخبار عن الأمم السالفة ، والقرون الخالية : السعداء منهم والأشقياء . ومايتصل بها من وعد محسنهم ، ووعيد مسيئهم وهو المراد بقوله (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقال الغزالي : مقاصد القرآن ستة ، ثلاثة مهمة ، وثلاثة متمة :

الأولى : تعريف المدعو إليه ، كما أشير إليه بصدرها . وتعريف الصراط المستقيم ، وقد صرح به فيها . وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى ، وهو الآخرة ، كما أشير إليه بملك يوم الدين .

والأخرى : تعريف أحوال المطيعين كما أشير إليه بقوله (الذين أنعمت عليهم) وحكاية أقوال الجاحدين وقد أشير إليها بالمغضوب عليهم ولا الضالين . وتعريف منازل الطريق كما أشير إليه بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين [١]) .

---

(١) أما حديث « فاتحة الكتاب تعدل بثلثي القرآن » رواه عبد بن حميد من حديث ابن عباس ، فهو حديث ضعيف . ووجه ، مع ذلك ، بأن أنواع الدلالات ثلاثة : مطابقة وتضمن والتزام . وهذه السورة دلت على جميع مقاصد القرآن بالتضمن والالتزام ، والاثنان من الثلاثة ثلثان . ذكره ناصر الدين ابن المبلق الشاذلي المالكي . وبدر الدين الزركشي . زاد الأول : وأيضا الحقوق ثلاثة : حق الله على العباد ، وحق العباد على الله ـ يعني تفضلا منه ـ وحق بعض العباد على بعض وقد اشتملت الفاتحة صريحا على الحقين الأولين ، فناسب كونها بصريحها ثلثين ، وحديث « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » شاهد لذلك .

٢ — سورة البقرة

لما ختمت الفاتحة بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم من المؤمنين ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين . ناسب أن يبين من هم المنعم عليهم ؟ وماطريقهم ؟ فقيل فى أول هذه السورة (ذلك الكتب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فبينت الآية المنعم عليهم ، وهم المتقون . كما بينت طريقهم ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، وهذا هو مسمى الدين الإسلامى .

تنبيهـــان

الأول : لو وضعت الفاتحة بجانب أى سورة ، لناسبتها بوجه من الوجوه ، إذ مامن سورة إلا فيها تفصيل لبعض ماأجملته معانيها . وهذا من خصائص الفاتحة ، ومن ثم سميت أم القرآن وأم الكتاب ، وأفرد تفسيرها بمؤلفات خاصة ، تكشف عن بعض أسرارها ، وحكمها وأحكامها . ومن أجمع تلك المؤلفات ، تفسير الفاتحة لجدنا الإمام العلامة العارف الكبير أبى العباس احمد بن عجيبة الحسنى ، وهو فى مجلد . وقد كان

سيدنا الإمام الاستاذ الوالد رضى الله عنه افتتح قراءة التفسير بالزاوية الصديقية ، فمكث يفسر الفاتحة شهراً كاملا ، أتى فيه بالمدهش المطرب ، وكان بحراً لاتنزفه الدلاء .

الثانى : افتتحت سورة البقرة ، بمدح المتقين الذين آمنوا بما أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم وماأنزل على من قبله من الرسل ، ثم بذم الكفار ، واختتمت بمدح المؤمنين الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله وطلبهم من الله — فى ختام دعائهم له — أن ينصرهم على القوم الكافرين ، فتناسب مطلعها ومقطعها .

تناسب السور الأربع الطوال

اعلم وفقك الله تعالى أن سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، تتناسب فى أمرين : نزولها بالمدينة ، واشتمالها على أحكام تشريعية ، ففى البقرة بيان القبلة وإتمام الحج والعمرة والاحصار ، والخلع وعدة المطلقات والمتوفى أزواجهن والدين والرهن وغير ذلك . وفى آل عمران إيجاب الحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد وبيان فضل الشهداء وغير ذلك . وفى النساء إيجاب الصداق وإباحة الزواج بأربع نسوة ، وبيان المحرمات فى النكاح والمواريث ، والوصاية على أموال اليتامى وأحكام القتل الخطأ وغير ذلك . وفى المائدة إيجاب الوضوء

وبيان مايحرم أكله وطعام أهل الكتاب ، وحرمة صيد البر على المحرم وإباحة صيد البحر مطلقا وغير ذلك .

وقال بعض الأئمة فى بيان تناسبها : سورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية ، والالتجاء إليه فى دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية . وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين . وآل عمران مكملة لمقصودها : فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم . وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم . ولهذا ورد فيها ذكر المتشابه ، لما تمسك به النصارى ، وأوجب الحج فى آل عمران . وأما فى البقرة فذكر أنه مشروع ، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه . وكان خطاب النصارى فى آل عمران أكثر . كما أن خطاب اليهود فى البقرة أكثر . لأن التوراة أصل والانجيل فرع لها . والنبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم . وكان جهاده للنصارى فى آخر الأمر . كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب . ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذى اتفق عليه الأنبياء ، فخوطب به جميع الناس . والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، فخوطبوا بيا أهل الكتاب . يابنى اسرائيل . ياأيها الذين آمنوا . وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التى بين الناس . وهى نوعان : مخلوقة لله ، ومقدورة لهم . كالنسب والصهر . ولهذا افتتحت بقوله (اتقوا ربكم

الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) ثم قال : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) فانظر هذه المناسبة العجيبة فى الافتتاح وبراعة الاستهلال، حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما أكثر السورة فى أحكامه من نكاح النساء ومحرماته والمواريث المتعلقة بالأرحام. فإن ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم ، ثم خلق زوجه منه، ثم بث منهما رجالا كثيراً ونساء فى غاية الكثرة . وأما المائدة ، فسورة العقود، تضمنت بيان تمام الشرائع ، ومكملات الدين ، والوفاء بعهود الرسل ، وما أخذ على الأمة ، وبها تم الدين ، فهى سورة التكميل ، لأن فيها تحريم الصيد على المحرم الذى هو من تمام الإحرام ؛ وتحريم الخمر الذى هو من تمام حفظ العقل والدين ، وعقوبة المعتدين ، من السراق والمحاربين ، الذى هو من تمام حفظ الدماء والأموال ، وإحلال الطيبات الذى هو من تمام عبادة الله تعالى . ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، كالوضوء والتيمم والحكم بالقرآن على كل ذى دين . ولهذا أكثر فيها من لفظ الإكمال والاتمام . وذكر فيها أن من ارتد عوض الله بخير منه ، ولايزال هذا الدين كاملا . ولهذا ورد أنها آخر ما نزل ، لما فيها من إشارات الختم والتمام. وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب .

٣ — سورة آل عمران

ختمت سورة البقرة بآية (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) فافتتحت هذه السورة ببيان بعض صفات الله تعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) لتأكيد أنه أهل لأن يتوجه إليه بتلك الطلبات . فى الآية السابقة (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلى ختام السورة . ثم ببيان الكتب التى آمن بها الرسول والمؤمنون (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس) وهذه أمهات الكتب السماوية ، ثم عم بقيتها (وأنزل الفرقان) كالزبور والصحف . ثم أتبع هذا ببيان أن المؤمنين آمنوا بالكتاب كله ، لم يفرقوا بين محكمه ومتشابهه ، كما لم يفرقوا بين أحد من رسله (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب) ثم مناسبة قوله تعالى (إن الذين كفروا بآيات الله) القرآن وبقية الكتب (لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام) ظاهرة ، وهى أن الله ينتقم من الكفار بنصر المؤمنين عليهم ، استجابة لدعائهم السابق (فانصرنا على القوم الكافرين) .

« تنبيــه »

افتتحت هذه السورة بأمرين : دعاء المؤمنين (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد) . وتهوين شأن الكفار ، وبيان مصيرهم (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب. قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) واختتمت بمثل ذلك (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد) (لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) فتناسب فيها المطلع والمقطع .

٤ — سورة النساء

ختمت السورة السابقة بالأمر بالتقوى(ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) وهو خطاب للمؤمنين فناسب أن يوجه الخطاب فى مفتتح هذه السورة لجميع الناس (يا أيها

الناس اتقوا ربكم) وزيد هنا وصف (الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) ليتناسب مع قوله فى أواخر السورة السابقة (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) فكأنه يقول : أثبتكم على أعمالكم الصالحة جميعا ذكورا وإناثا ، لأنكم جميعا مأمورون بالتقوى ، وترجعون فى أصل نشأتكم إلى آدم وحواء .

٥ — سورة المائدة

قال الصاوى فى حاشية تفسير الجلالين : وجه المناسبة بينها وبين ماقبلها : أنه حيث وعدنا الله بالبيان ، كراهة وقوع الضلال منا ، تمم ذلك الوعد بذكر هذه السورة ، فإن فيها أحكاما لم تكن فى غيرها . قال البغوى عن ميسرة قال : إن الله تعالى أنزل فى هذه السورة ثمانية عشر حكما لم تنزل فى غيرها من سور القرآن : وهى : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم ، وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام وماعلمتم من الجوارح مكلبين ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ، وبيان تمام الطهر فى قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة ، والسارق والسارقة ، ولاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ، وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، وقوله (شهادة بينكم إذا حضر أحد الموت) قلت : من تدبر هذه السورة وجد فيها أحكاما أخرى

لم تذكر فى غيرها ، وقال الكواش فى تفسيره : لما ختم سورة النساء أمر بالتوحيد والعدل بين العباد ،أكد ذلك بقوله (ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود).

٦ — سورة الأنعام

ختمت السورة السابقة بقوله تعالى (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير) فناسب أن يبين سبب تلك الملكية ومنشأها ، فافتتح هنا بجملة (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) فسبب ملكية الله للسموات والأرض : أنه خالقهما ومافيهما، وتلك ملكية حقيقية ، لا كملكية الناس لما يملكون بشراء أو هبة أو توريث . فانها ملكية مجازية ، والحقيقة فيها لله تعالى وفى قوله (وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى أن مايؤلهه بعض الكفار ، كالثانوية وعبدة الكواكب ، ماهو إلا بعض من مقدوراته التى شملها قوله (وهو على كل شىء قدير) ومن ثم كان المشركون بجميع فرقهم فى غاية البعد والانحطاط العقلى ، حين سووا بالله فى الربوبية والعبادة بعض مملوكاته المخلوقة له ، والتى هى أثر من آثار قدرته العامة الشاملة . فأشار إليهم بثم المفيدة للبعد والتحقير فى قوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وعبارة : الذين كفروا . تشمل أهل الكتاب الذين ألهوا عيسى أوعزيرا ، وعبدوهما مع الله تعالى .

وقال بعض العلماء : افتتاح سورة الأنعام بالحمد ، مناسب لختام المائدة من فصل القضاء ، كما قال تعالى (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) قلت : لأن المراجعة المذكورة فى آخر المائدة بين الله تعالى ، وبين عيسى عليه السلام ، إنما تكون يوم القيامة .

ومناسبة أخرى بين السورتين ، فان سورة المائدة اشتملت على أحكام لم تذكر فى غيرها ، وكذلك سورة الأنعام .

فاشتملت آية (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) على ثمانية عشر رسولا لم تجمعهم سورة أخرى ، وفيها من الأحكام التى لم تذكر فى غيرها (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق .. وآتوا حقه يوم حصاده) . وهو غير الزكاة ، بل المراد إعطاء ماسقط من الزرع والثمار ساعة الحصاد ، لمن حضر من الفقراء ، ولهذا قيل (يوم حصاده) .

٧ — سورة الأعراف

نوه الله عن القرآن فى أواخر السورة السابقة ، بقوله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) . الآية إلى أن توعد المكذبين به ، والمعرضين عنه (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب

بما كانوا يصدفون) الآيات . فافتتح هذه السورة بنهى نبيه أن يكون فى صدره ضيق منه ، بسبب تكذيب قومه به، وصدوفهم عنه (كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه) بل استمر فى تبليغه (لتنذر به) المكذبين الصادفين أى المعرضين (وذكرى للمؤمنين) به . قل لهم جميعا (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) وهذا كقوله فى الآية السابقة (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) فالمناسبة ظاهرة والحمد لله .

تنبيهان :

أحدهما : جملة (أنزلناه) صفة كتاب ، (ومبارك) صفة ثانية وصنيع الآية يرد على من زعم من النحويين. أنه إذا اجتمع فى الكلام صفتان لموصوف ، إحداها جملة ، والأخرى مفرد ، وجب تقديم المفرد على الجملة .

ثانيهما : ابتدئت هذه السورة بالأمر باتباع القرآن ، وختمت بالأمر بالاستماع إليه (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) فتناسب المطلع والمقطع .

٨ — سورة الأنفال

مناسبتها لما قبلها أن الله تعالى ختم السورة السابقة بالأمر بذكر فى جميع الحالات (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر

من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين) الآية . فذكر فى مفتتح هذه السورة ، ما يحدثه ذكر الله عند المؤمنين من الآثار الحميدة (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) وفى هذه الآية إشارة إلى مناسبة أخرى، وهى مايحدثه سماع القرآن المأموربه فى الآية السابقة(وإذاقرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) فهاتان مناسبتان واضحتان ، والحمد لله .

٩ — سورة التوبة

مناسبتها للأنفال أن موضوعهما الحض على قتال الكفار ، وترك مهادنتهم ، وحكم المغانم ، وما إلى ذلك . وقد تقدم عن عثمان رضى الله عنه أنه ظن التوبة مع الأنفال سورة واحدة ، لأن قصتها تشبه قصتها . ناهيك بمناسبة حملت على الاعتقاد باتحاد السورتين ، والله تعالى أعلم .

١٠ — سورة يونس عليه السلام

مناسبتها لما قبلها من وجهين :

أحدهما : أن الله امتن على المؤمنين — فى آخر التوبة — بمجىء رسول إليهم من أنفسهم ، عزيز عليه عنتهم ، حريص عليهم ، أى على

هدايتهم ، رءوف رحيم بهم . فذكر فى مفتتح هذه السورة عجب الكفار من أن يوحى الله إلى رسوله لينذر ويبشر (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لسحر مبين) والاستفهام إنكارى ، لإنكار تعجبهم من إرسال رسول منهم ، أى لا يليق ولا ينبغى أن يتعجبوا من إرسال بشر ، لأن البشر أهل لتحمل الرسالة خصوصا محمدا صلى الله عليه وسلم فى كمال صفاته ونعوته .

ثانيهما : أنه قال ــ فى ختام السورة السابقة ــ (فان تولوا) أى الناس جميعا عن الايمان (فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فبين هنا الأوصاف التى أوجبت التوكل عليه ، والالتجاء إليه (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر، مامن شفيع إلا من بعد إذنه، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون) فلأجل أنه خالق السموات والأرض ومدبر الأمر فيهما ، ومربى الخلق بما يصلح شئونهم ، وجب إفراده بالعبادة ، ومن أعلى مقاماتها التوكل عليه . والاكتفاء به عن سائر مخلوقاته ، سبحانه وتعالى .

تنبيهان :

الأول : جرى بعض المفسرين على تفسير العرش في الآيتين السابقتين ونحوهما ، بالكرسي ، وهو غلط ، والصواب : أن العرش غير الكرسي ، كما تقتضيه الأدله ، ولا يوجد دليل ، ولاشبه دليل ، يقتضي أنهما شيء واحد .

الثاني : قوله تعالى (ثم استوى على العرش) اتفق العلماء على أن الاستواء المعهود ـ وهو الجلوس ـ غير مراد هنا ، لقيام الأدلة العقلية والنقلية على تنزه الله عنه ، لأنه من صفات المحدثات . ثم اختلفوا بعد ذلك فذهب السلف إلى التفويض ، فقالوا : استوى استواء يليق به ، ونكل تعيين المعنى إليه سبحانه وتعالى : وذهب الخلف إلى التأويل ، فقالوا : معنى استوى : استولى ، واستدلوا بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق ∴ من غير سيف ودم مهراق

ورد هذا التأويل بوجهين :

أحدهما : أن الله تعالى مستول على الكون كله ومن فيه ومافيه ، فما السر في تخصيص العرش ؟ .

ثانيهما : أن الاستيلاء يكون بعد قهر وغلبة ، والله تعالى منزه عن ذلك ، سئل ابن الأعرابي عن معنى استوى ؟ فقال : هو على عرشه

كما أخبر . فقيل : ياأباعبد الله معناه استولى ؟ قال : اسكت . لايقال : استولى على الشيء . إلا إذا كان له مضاد . فإذا غاب أحدهما ، قيل : استولى . رواه اللالكائى فى السنة .

والصواب عندى فى التأويل ـ إن ذهبنا إليه ـ أن يقال : جملة (ثم استوى على العرش) أريد بها انتظام الملك، وتمام خلق السموات والأرض ومافيهما على وفق ماسبق فى العلم الإلهى القديم ، فهى من باب الاستعارة التمثيلية المعروفة فى علم البيان .

ومما يؤيد هذا التأويل : أن الاستواء تكرر فى القرآن ست مرات فذكر فى سورة طه والفرقان والسجدة والحديد ، كما ذكر هنا . عقب خلق السموات والأرض . وذكر فى سورة الرعد عقب رفع السموات وهو مظهر من مظاهر انتظام وضعها بالنسبة لوضع الأرض . وذلك من تمام انتظام الملك الذى عبر عنه بالاستواء على سبيل الاستعارة كما مر .

١١ — سورة هود عليه السلام

مناسبتها لما قبلها أن الله تعالى ختم السورة السابقة بأمر الناس جميعا باتباع القرآن (قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق) القرآن (من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) وهذه الصيغة تفيد وجوب الهداية بالقرآن واتباعه . بطريق الكناية ، لأنه إذا كان

نفع هداية الإنسان عائدا لنفسه . وضرر ضلاله يعود عليها ، فيجب عليه اتباع طريق الهداية ، وترك طريق الضلال ، ثم أمر نبيه باتباع القرآن، والصبر على الكفار الذين لم يؤمنوا به . حتى يحكم الله (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) . فذكر فى مفتتح هذه السورة بيان حقية القرآن (كتاب أحكمت آياته) بعجيب النظم وبديع المعانى (ثم فصلت) بينت بالأحكام والقصص والمواعظ (من لدن) من عند (حكيم خبير) ثم عاد إلى الاستدلال على حقيته ، ليتأكد وجوب اتباعه، والاهتداء به، فتحدى العرب أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، إن كان مفترى كما يزعمون (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وهذه مناسبة ظاهرة ، والحمد لله .

١٢ — سورة يوسف عليه السلام

قال الصاوى : مناسبة هذه السورة لما قبلها جمع قصص الأنبياء . فإن ما قبلها ذكر فيها سبع قصص للأنبياء ، وهذه من محاسن قصص الأنبياء . وأيضا ليتسلى النبى صلى الله عليه وسلم بما وقع للأنبياء من أذى الأقارب والأباعد، عما وقع له من أذى قومه الأقارب والأباعد ، قلت : ولهذا قال فى ختام السورة السابقة (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) وقال هنا (نحن نقص عليك أحسن القصص بما

أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) . ويصح اعتبار هذا ـ أعني مناسبة افتتاح هذه السورة لخاتمة تلك مناسبة أخرى ـ تضم لما سبق، مناسبة أخرى، وهي أن هذه السور الست : سورة يونس وسورة هود ، وسورة يوسف ، وسورة الرعد ، وسورة إبراهيم ، وسورة الحجر . كل سورة منها بدئت بحرف (ألر) يليه الحديث عن القرآن [1] ، إلا سورة الرعد فبدئت بحرف (ألمر) . وكلها مكية ، إلا الرعد ففيها خلاف ، قال ابن عباس : مكية ، وقال غيره : مدنية .

تنبيهات :

الأول : سئلت بقرية « أويش الحجر » بجهة المنصورة : لم ذكر الله قصة يوسف كلها في سورة واحدة ؟ ولم يوجز فيها ؟ ولا كررها كما فعل في غيرها من القصص ؟ فأعملت فكري ، حتى فتح الله علي بجواب لم أجده في كتب التفسير التي وقفت عليها ، وقد ذكرته في كتابي « كمال

---

(١) وكل سورة فتحت بحرف الهجاء . تلاه الحديث عن القرآن. نحو (ألم. ذلك الكتاب لاريب .. ألم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق .. المص. كتاب أنزل إليك .. كهيعص. ذكر رحمة ربك) أي هذا الموحى إليك ذكر رحمة ربك . وهكذا كل سورة بدئت بحرف الهجاء ، إلا سورة العنكبوت والروم والقلم ، لم يذكر في فاتحتها شيء عن القرآن ، لحكمة نبينها فيما يأتي بحول الله .

الإيمان فى التداوى بالقرآن » وتلخيصه : أن الله تعالى أورد هذه القصة مرة واحدة . ولم يوجزها ولا كررها لنكتتين : ترجع إحداهما لعلم الأصول ، والثانية إلى علم البلاغة .

أما الأولى : فإن هذه القصة ، نزلت بسبب سؤال وقع (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) . وذلك يقتضى أن تذكر كلها فى هذا الموضع ، ولو أخر شىء منها إلى سورة أخرى ، كان الجواب غير واف بالسؤال ، وذلك غير جائز ، لأن المقرر فى علم الأصول : أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .

وأما الثانية: فإن القصه ذكرت مجملة فى قول يوسف لأبيه(إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) وماحصل بعد ذلك بينه وبين إخوته . يعد تفصيلا لهذه الرؤيا ، وتمهيدا لتفسيرها . ألا ترى إلى يوسف حين تلاقى بأبويه وإخوته ، وخروا له سجدا ،قال (ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) ؟ يشير إلى ماذكرنا . ولاشك أن السامع للرؤيا تطلعت نفسه إلى تأويلها ، ومعرفة ما المراد بالكواكب؟ وما المراد بالشمس والقمر ؟ومامعنى سجودهم، فكان من مقتضيات البلاغة التى هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال : تفصيل القصة بعد هذا الاجمال ، وتفسير الرؤيا بعد ذاك الإبهام، لتهدأ نفس السامع ، ويطمئن قلبه . وأما عدم تكرارها ، فهو مبنى على

ماسبق . لأنها إما أن تتكرر بالأسلوب نفسه ، وهو تكرار لاداعى إليه . وإما بأقل منه ، وهو إخلال بالمقصود . وإما بأزيد منه ، وهو إطناب لاحاجة إليه .

لمحـــة إشارية

لما امتنع يوسف عن فعل الفاحشة . وقاوم فى نفسه شهوة الإنسان(١) كما خالف دعوة النساء يؤيدهن الشيطان . مخافة الوقوع فى معصية الملك الديان . أفردت قصته بسورة فى القرآن . يتردد اسمه فيها على تطاول الزمان ، تنويها بشأن العفة والطهر . والبعد عن الخنا والعصيان، وتنبيها على أن بلايا الأبدان . لا تبلغ فى كفة الميزان ، ثواب الصبر عن الوقوع فيما يغضب الرحمن. أيوب عليه السلام ابتلى فى جسمه وأهله وماله. فأثنى الله عليه بقوله (إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب) لكن يوسف عليه السلام أثنى الله عليه بقوله (إنه من عبادنا المخلصين) فنظمه فى سلك الكليم ، حيث قال عنه (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا) وشتان بين المخلص والأواب . فتدبر آيات الكتاب. تفهم سر الخطاب ، ويرفع عنك الحجاب . أرشدنا الله وإياك إلى الصواب .

---

(١) لأنه قد هم بإتيانها ، لكنه قاوم همه ولم يعزم ، فاستحق المدح والثناء ، راجع ما كتبناه فى « بدع التفاسير » .

الثانى : قال الكرمانى فى كتاب العجائب : فى قوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) قيل : هو قصة يوسف ، وسماها أحسن القصص ، لاشتمالها على ذكر حاسد ومحسود ، ومالك ومملوك ، وعاشق ومعشوق ، وشاهد ومشهود ، وحبس وإطلاق ، وسجن وخلاص ، وخصب وجدب وغيرها مما يعجز عن بيانها طوق الخلق .

الثالث : افتتحت هذه السورة بقوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) واختتمت بقوله تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) الآية فتناسب مطلعها ومقطعها . وبالله التوفيق .

١٣ ـ سورة الرعد

مناسبتها لما قبلها من وجهين :

أحدها : أن الله تعالى قال فى السورة السابقة (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) فبين هنا بعض تلك الآيات (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) إلى قوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

ثانيها : نفى فى السورة السابقة الافتراء عن القرآن (ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى

ورحمة لقوم يؤمنون) وأثبت هنا حقيته أي أنه حق منزل من الله (تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) سماه هناك : هدى ورحمة ، وسماه هنا : الحق .

١٤ — سورة إبراهيم عليه السلام

مناسبتها لما قبلها من وجوه :

أحدها : قال تعالى فى السورة السابقة (وكذلك أنزلناه) القرآن (حكما عربيا) وقال هنا مبينا حكمة ذلك (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) فالقرآن نزل عربيا ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم عربى ، ولسان قومه عربى .

ثانيها : قال تعالى — هناك يرد على الكفار الذين عابوا النبى صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء — (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) فذكر هنا دعاء ابراهيم لذريته (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) الآية . وذكر قول ابراهيم أيضا (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق) يشير إلى أن ابراهيم الذى يعتقده الكتابيون ، كان له أكثر من زوجة ، وصرح بذكر ولديه ، ليذكرهم — إن نسوا أو تناسوا — أنهما كانا من زوجتين .

فكأنه يقول لهم: إن عبتم على محمد تعدد الزوجات . فقد كان لجده ابراهيم أكثر من زوجة ، ورزق ببكره أفضل ولديه من زوجته الثانية . فلم تعيبون الطاهر المعصوم وأنتم المعيبون ؟

لمحة إشارية

ترك ابراهيم عليه السلام فلذة كبده ، وأعز ولده إسماعيل مع أمه هاجر . فى مكان قفر ، لازرع فيه ولا ضرع ، ولا نبات ولا ماء . أرض جرداء ، تعلوها قبة زرقاء . لكنه توجه إلى الله بصدق فى الدعاء . وأخلص فى الالتجاء ، وبسط له كف الرجاء . فسمع الله دعاءه ، وقبل رجاءه . كيف لا ؟ وهو خليله الذى رد الأمور كلها إليه حين يقول (إلا رب العالمين. الذى خلقنى فهو يهدين. والذى هو يطعمنى ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين) فأنبع لأهله زمزم عينا معينا . وجعل قلوب الناس تهفو إلى ذلك المكان لأنه بيته الحرام ، وسخر لاسماعيل الخيل . وكانت قبل ذلك وحشية لاتستأنس ، ومن ثم كنى أبا السباع ، وجعل الله ركوبها عزا وقوة لذريته العرب ، ثم إكراماً لها — وقد تأنست بعد توحش ، وكان فى نواصيها الخير — : حرم الله على المحرم صيد البر مادام محرما . فيا أيها المريد . كن على قدم الخليل : توجه إلى الله بصدق . والجأ إليه بإخلاص ، وفوض

الأمور كلها إليه . يخرق لك العادات . ويسخر لك الكائنات ، ويريك ماتحب فى نفسك وأهلك وولدك . ويجعل مع البركة بركات.

ثالثها : قال تعالى ـ يرد على الكفار الذين طلبوا الآيات عنادا (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله). فذكر هنا أن كل رسول قال ذلك لقومه ، وليس خاصا بنبينا صلى الله عليه وسلم (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان) آية تقوم بها الحجة (إلا بإذن الله) .

تنبيهان

الأول : قوله تعالى (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) وقوله سبحانه (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) لاينافيان الآيات الدالة على إرسال النبى صلى الله عليه وسلم إلى العالمين . لأن القرآن إنما نزل بلغة العرب ، ليكون حجة عليهم ، لعجزهم عن معارضته ، والاتيان بشىء مما فيه من أنواع العلوم والحقائق والأحكام والنظم وغيرها ، ثم العرب الذين أسلموا ، وغيرهم من المسلمين الذين فهموا القرآن . مأمورون على سبيل الوجوب ، بنقل الدعوة وتبليغها إلى سائر الأمم. وذلك بترجمة تفسير القرآن والأحاديث إلى اللغات الأجنبية المختلفة . وتعلم اللغات ـ لهذا ولغيره من المقاصد ـ فرض كفاية ، تأثم الأمة

بتركه . كاأثمت بترك تبليغ الدعوة الإسلامية ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول « بلغوا عنى ولو آية » ويقول « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » فالواجب على العلماء بصفة خاصة أن يتعلموا اللغات الأجنبية ، لينقلوا بها تعاليم الدين وأحكامه إلى المسلمين غير العرب . وليبشروا بالدين الاسلامى فى البلاد الأوربية والأفريقية وسائر بلاد العالم .

الثانى : بدئت هذه السورة بقوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) وختمت بقوله تعالى (هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب) وهذا نوع من المحسنات البديعية يسمى « رد العجز على الصدر » وهو أيضا من تناسب مطلع السورة ومقطعها .

١٥ — سورة الحجر

مناسبتها لما قبلها : أن الله ذكر مكر الكفار بالنبى صلى الله عليه وسلم ، حين أرادوا نفيه أو حبسه أو قتله (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم) أى جزاؤه (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) وتوعدهم بما يحصل لهم يوم القيامة (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار . وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار . ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله

سريع الحساب) فذكر هنا أن الكفار يتمنون يوم القيامة لو كانوا مسلمين في حياتهم (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وذلك حين يذوقون العذاب الذي أوعدوا به في الآيات السابقة. والله تعالى أعلم.

مناسبة أخرى: ختمت السورة السابقة بالحديث عن القرآن (هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب) وفتحت هذه بالحديث عنه أيضا (تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) وتحدثت عن زعم الكفار جنون الآتي به (وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون. لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) ورد الله عليهم بأنه الذي نزل الذكر وأنه يتولى حفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

مناسبة أخرى: ذكرت السورة السابقة قصة ذهاب ابراهيم بابنه مع أمه، إلى الحجاز، وتركهما هناك، وسبب ذلك على ما صح - إبعاد هاجر وولدها، عن سارة التي غارت منها غيرة شديدة، حيث لم ترزق بولد مثلها. فذكرت هذه السورة قصة بشارة إبراهيم بولد من زوجته الغيرى. (ونبئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون. قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم) وقد جاءت البشارة متأخرة، فإنهم حين بشروه بإسحاق كان قد جاوز المائة بعشر أو أكثر، فاستبعد أن يرزق بولد في هذه السن (قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم

تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) وهذه مناسبة واضحة . والدليل على أن المبشر به هنا إسحق عليه السلام ، التصريح به فى قصة الضيف فى سورة هود (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) مشوى (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه) أى لم يأكلوا منه ، لأنهم ملائكة (نكرهم وأوجس منهم خيفة) وصرح لهم بوجله كما هنا (قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة) تساعده على خدمة الضيف، إذ ليس لها خادم (فضحكت) فرحا بإرسال رسل لانقاذ لوط عليه السلام، وهو ابن أخى زوجها إبراهيم عليه السلام (فبشرناها) على لسان الرسل (بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب) يعنى أنها تعيش حتى يتزوج إسحاق وترى ولده يعقوب . وهذا أحد الأدلة على أن الذبيح غير اسحق ،لأن الله بشر أمه بأن يعيش حتى يتزوج ويلد ، فكيف يأمر بذبحه قبل ذلك ؟!هذا خلف. وقد استبعدت سارة هذه البشارة كما استبعدها زوجها من قبلها (قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) وقد أبعد من عد سارة أو مريم نبية ، لمخاطبة الملائكة إياها ، فإن نبوة الشخص لاتثبت بمجرد خطاب الملائكة له بسلام أو بشارة

أو نحو ذلك ،[١] وإنما تثبت بأن يوحى الله إليه بتشريع .

مناسبة أخرى : ذكر الله فى السورة السابقة مراجعة الكفار بعضهم لبعض ، وكلام الشيطان معهم (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم) بمغيثكم (وما أنتم بمصرخى) بمغيثى (إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) وهم لم يعبدوه ، لكن طاعتهم له فيما زين لهم من الكفر والمعاصى اعتبرت شركا . فذكر هنا أن إغواءهم المشار إليه هناك ، عزم عليه الشيطان[١] منذ خلق آدم عليه السلام ، حين امتنع من السجود له (وإذ قال ربك للملائكة

---

(١) وقد كانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين رضى الله عنهما ويسمع سلامهم ويرد عليهم . وكان أهل بيته يسمعون سلامهم أيضا ، وذلك كل ليلة . فلما اكتوى لأجل البواسير ، انقطع السلام ، ولما ذهب أثره ، عادوا للسلام عليه . والحديث بهذا صحيح بل مستفيض ، وفى بدء الأمالى :

وما كانت نبيا قط أنثى ∴ ولا عبد وشخص ذو فعال

(١) وأخبرنا بهذا العزم منه لنحذره ، بل قال فى سورة فاطر (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) .

إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) .

١٦ — سورة النحل

ذكر الله تعالى فى السورة السابقة بداية خلق آدم أبى البشر (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ... وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون) فذكر فى هذه السورة ما خلق من النعم له ولأولاده (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ... هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) إلى قوله (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم) وآيات أخرى فى نعم اللبن

والعسل والأزواج والذرية وغير ذلك . ولهذا قال قتادة : تسمى هذه السورة سورة النعم ، أى لكثرة ماعدد الله فيها من النعم على عباده ، وهذه مناسبة واضحة .

ومناسبة أخرى، أمر الله تعالى نبيه أن يجهر بالدعوة ،وأن يعرض عن المشركين ، وتوعدهم بأنهم سوف يعلمون عاقبة أمرهم (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين، الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) فأخبر هنا أن يوم القيامة الذى يلاقون فيه جزاءهم آت لامحالة ، ونزه نفسه عن إشراكهم (أتى أمر الله) هو يوم القيامة ، وعبر بالماضى لتحقق وقوعه . والمراد : يأتى (فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

مناسبة أخرى : ختمت السورة السابقة بقوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وهو الموت ، سمى يقيناً لأنه لابد من وقوعه . وفتحت هذه السورة بقوله (أتى أمر الله) يوم القيامة ، فتناسبت فاتحة هذه وخاتمة تلك ، فى ذكر أمرين واجبى الوقوع ، شاملين للمخلوقات ، يكشفان — حين وقوعهما — ما كان غائبا عن المكلف من شئون الآخرة وما فيها .

١٧ — سورة الإسراء

مناسبتها لما قبلها أن الله تعالى أثنى فى ختام السورة السابقة على

إبراهيم عليه السلام : (إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) فذكر فى مفتتح هذه السورة ما أكرم به أفضل الأنبياء من ذريته . وهما محمد وموسى عليهما السلام (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير . وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) .

مناسبة ثانية : قال الله تعالى فى آخر السورة السابقة (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وهى معية عناية وإكرام . فذكر هنا إكرامه لسيد المتقين والمحسنين (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام) الآية . والباء فى (بعبده) تفيد المصاحبة والمعية . وثنى بذكر موسى ، لأنه حظى بمثل هذه المعية . حين قال الله تعالى له ولأخيه لما أبديا تخوفهما من فرعون (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) والله تعالى أعلم .

ومناسبة ثالثة : ذكر الله تعالى فى السورة السابقة كثيراً من النعم التى أنعم بها على بنى آدم ، وذكر هنا أجل تلك النعم ، وهى نعمة التكريم والتفضيل (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وهذه مناسبة واضحة .

تنبيهان

الأول : افتتحت هذه السورة بالتسبيح ، إشارة إلى أن الإسراء من المعجزات العظيمة التي تثير دهشة السامع وإعجابه ، فلا يملك إلا أن يسبح الله تعالى تنزيها له عما ينسبه له الجاهلون . وهذا أحد الأدلة على أن الإسراء كان يقظة بالجسم والروح (١) .

وقال ابن الزملكاني : لما اشتملت هذه السورة على الإسراء الذي كذب المشركون به النبي صلى الله عليه وسلم . وتكذيبه تكذيب لله سبحانه وتعالى . أتى بسبحان ، لتنزيه الله عما نسب إليه نبيه من الكذب . واختتمت بالتحميد ، فتناسب مطلعها ومقطعها ، حيث بدئت بتنزيه الله عن النقائص ، وانتهت بإثبات الكمال له تعالى . وهذا هو الوضع الطبيعي : نفي ، ثم إثبات .

الثاني : من تأمل صنيع القرآن الكريم ، وجده إذا ذكر الإنسان ، أتبعه غالبا بوصف ذم . اقرأ الآيات الآتية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار(٢) .. وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ..

(١) إذ لو كان مناما كما يقول بعض المبتدعة ، لم يكن للتسبيح معنى . أنظر ما كتبناه في فضائل النبي في القرآن .

(٢) وفي سورة الإسراء أيضا قبل آية التكريم بآيتين (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) .

لايسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط .. وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض. وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الانسان كفور .. وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين .. إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا الخير منوعا .. قتل الإنسان ماأكفره .. ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم .. إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .. إن الإنسان لربه لكنود .. والعصر إن الإنسان لفى خسر) هذا سوى وصفه بالضعف (وخلق الإنسان ضعيفا) وبكثرة الجدل (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) وبالعجل (خلق الانسان من عجل ..وكان الإنسان عجولا)إلى غير ذلك . وحين أخبر عن تكريمه قال : (ولقد كرمنا بنى آدم) وذلك يشير إلى أن الله تعالى لم يكرم الإنسان ـ وتلك صفاته ـ إلا من حيث بنوته لآدم الذى خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه . وأسجد له ملائكته، وأكرمه بالنبوة ، وكلمه قبلا(١). ولما خالف النهى نسيانا ، بادر بالتوبة،

---

(١) وأيضا فان آدم مخلوق من أديم الأرض . فتكريمه لأجل تواضع أصله . وفى ذلك إشارة إلى أن الله يحب المتواضع ويكرمه . قال صلى الله عليه وسلم: « من تواضع لله رفعه » ومن هنا كان الإنسان حين يضع وجهه على الأرض ساجدا لله تعالى ، قريبا منه . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد » .

معترفا بالخطيئة (قالا) هو وزوجه (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فاجتباه ربه ، وتاب عليه ، وهداه ومن كرامته على مولاه أن الله تعالى يعتذر له يوم القيامة ثلاثة معاذير بشأن تعذيب أولاده الكفار والعصاة ، كما جاء فى حديث أبى هريرة فى المعجم الصغير للطبرانى[1] . فهو أول الأنبياء ، وسيد التائبين . فعلى أولاده أن يقتدوا بأبيهم الأقدم ، والرسول الأكرم . كلما خطىء منهم خاطىء ، أوأساء مسىء ، أسرع بالرجوع إلى الله ، والإنابة إليه حتى يكون يوم القيامة ، يوم يدعى كل أناس بإمامهم ، ممن يؤتى كتابه بيمينه ، ويفوز برضاء الله ونعيمه .

١٨ — سورة الكهف

روى البيهقى فى الدلائل عن طريق ابن هشام عن زياد بن اسحاق : أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى اليهود . يسألونهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث : فإذا

---

(١) وفى معجم الطبرانى الكبير من طريق يزيد الرقاشى عن أنس ، قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يشفع الله تبارك وتعالى آدم يوم القيامة من ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف » أى مائة مليون وعشرة ملايين .

عرفها فهو نبي : سلوه عن أقوام ذهبوا فى الأرض فلم يدر ما صنعوا ؟ وسلوه عن ملك ذهب إلى المشرق وإلى المغرب ؟ وسلوه عن الروح ؟ فرجعوا وسألوه ، فبين لهم قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وأبهم أمر الروح ، وهو فى التوراة كذلك ، فندم اليهود . ووجه المناسبة : أن الجواب عن الروح تقدم فى السورة السابقة ، وذكر هنا الجواب عن القصتين .

فإن قيل : ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتموه . فقالوا: حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه ، فعرفت أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحى . ثم قال (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فهذا الحديث الصحيح يفيد أن السؤال عن الروح وقع بالمدينة ، وفيها نزلت الآية . فالجواب : أن اليهود بعثوا إلى المشركين وهم بمكة ليسألوه عن الروح كما مر عن ابن اسحاق ، وروى الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل . فقالوا : اسألوه عن الروح ؟ فسألوه فأنزل الله (ويسألونك عن الروح) الآية . فالسؤال وقع من قريش بمكة بإرشاد اليهود . ونزلت الآية بسبب هذا السؤال ، كما صرح به ابن عباس . ثم لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أعاد اليهود

سؤاله عن الروح ، إما لأنهم طمعوا أن يختلف جوابه ، فيزعموا أنه ليس بنبي ، وإما أن الذين شافهوه بالسؤال ، غير الذين أرشدوا قريشاً إليه . فأنزل الله الآية مرة ثانية ، لإفادة أنه لا جواب لهم غير ذلك . وابن مسعود لم يقل : فنزلت الآية ، وهى العبارة المعهودة فى سبب النزول . بل قال : ثم قال (قل الروح من أمر ربى) ويؤخذ من هذه العبارة أن الآية كانت معروفة له ، لنزولها قبل ذلك .

تنبيه : جاء الجواب عن الروح مبهماً ، ليكون دليلا لليهود على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته ، لأنه عندهم فى التوراة مبهم ، ومن ثم ندموا على تقديم السؤال . وعلى هذا فالقرآن لا يفيد المنع من البحث فى الروح(١) ، أو كراهية الخوض فى الكشف عن حقيقتها يقتضى ما يؤدى إليه النظر والاستدلال .

مناسبة أخرى : ختم الله تعالى السورة السابقة ، بالحمد على صفاته الذاتية ، لإفادة أنه المستحق للحمد ، لكمال ذاته ، وتفرده فى صفاته (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له

---

(١) وقول التاج السبكى فى جمع الجوامع : وحقيقة الروح لم يتكلم عليها محمد صلى الله عليه وسلم فنمسك عنها ، مبنى على فهمه أن الكتاب والسنة يكرهان البحث فيها ، وليس كذلك . فقد بحث فيها الامام مالك وغيره ، أنظر كتاب الروح ، لابن القيم .

ولى من الذل وكبره تكبيرا) فافتتح هذه السورة بقوله (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) لإفادة أنه تعالى يستحق الحمد على إنزال الكتاب . وهو أفضل النعم وأجلها ، لأن فيه صلاح المعاش والمعاد ، وبه تنال سعادة الدنيا والآخرة ، مع إجابته عما يسأل عنه اليهود والمشركون ، فالله تعالى يستحق الحمد لذاته ، ولنعمه .

ومناسبة بين فاتحة تلك السورة وهذه : تلك بدئت بالتسبيح ، وبدئت هذه بالتحميد . وهو يأتى بعد التسبيح . نحو (فسبح بحمد ربك) « سبحان الله والحمد لله » لأنه إثبات للكمال . بعد نفى النقص . فهو ترق فى وصف الله تعالى ، والثناء عليه .

تنبيه : فتحت هذه السورة ببشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات وإنذار للمشركين الذين دعوا لله ولدا (قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسناً . ماكثين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) وختمت بإيجاب العمل الصالح، والنهى عن الشرك (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو) يخاف (لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) فتناسب فيها المطلع والمقطع .

فائدة : ثبت فى صحيح مسلم عن أبى الدرداء : أن نبى الله صلى الله

عليه وسلم قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » وفى رواية لمسلم وأبى داود « عشر آيات من آخر سورة الكهف » والروايتان صحيحتان ، والحديث بروايتيه يحض على حفظ عشرين آية : عشر من أولها ، وعشر من آخرها . أما العشر الأوائل فتشتمل على المعانى الآتية فى حمد الله على إنزال الكتاب، بشارة المؤمنين، إنذار المشركين الذين كذبوا على الله بنسبة الولد إليه ، جعل ما على الأرض زينة لها وابتلاء لهم ، الإشارة إلى أصحاب الكهف الذين تمسكوا بتوحيدهم ، وهربوا إلى الكهف فارين بدينهم من قومهم المشركين . ومن تأمل هذه المعانى وتدبرها ، علم أن الدجال مشرك بادعائه الألوهية ، وأن ما معه من متاع ومال ، إنما هو ابتلاء وامتحان ، واتخذ أهل الكهف قدوة له ، فتمسك بدينه كما تمسكوا ، واعتصم بتوحيده ، والتجأ إلى الله ، فحماه من الدجال ، وعصمه من فتنته . وأراه كرامات ، كما فعل مع أهل الكهف من قبل . والعشر الأواخر أولها ، (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) وهى تتفق مع سابقتها فى المعنى المقصود ، وهو إنذار المشركين الذين يتخذون بعض عباد الله آلهة ، وتبشير المؤمنين . ثم تختتم بإخلاص العبادة لله (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وهذه المعانى ـ خصوصا الإخلاص ـ تعصم صاحبها والمتمسك بها من فتنة الدجال ، والله تعالى أعلم .

١٩ ـ سورة مريم عليها السلام

مناسبتها لما قبلها : أن السورة السابقة ، اشتملت على قصص عجيبة ، تدل على كمال قدرة الله تعالى ، وبديع حكمته ، كقصة أصحاب الكهف ، وقصة موسى والخضر عليهما السلام ، وقصة ذى القرنين . فجاءت هذه السورة مشتملة على قصص لا تقل عجبا وحكمة عن القصص السابقة . كإعطاء يحيى لزكريا بعد كبره وعقم امرأته ، وحمل مريم بعيسى ، وهى بكر لم تتزوج ، وكلام عيسى وهو فى المهد .

تنبيه : ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » فأنزل الله اعتذار جبريل فى هذه الآية (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) الآية . سئلت مرة عن مناسبة وضعها بعد قوله تعالى فى وصف جنات عدن (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا . تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) والذى يظهر لى فى ذلك ـ والله أعلم بسر كتابه ـ أن الله تعالى ذكر رزق أهل الجنة ، وأنه يأتيهم فى وقتين منتظمين : بكرة وعشيا ، لا يتخلف ، ولا يتأخر ، ولما كان الوحى

رزق النبي صلى الله عليه وسلم الروحى[١] ، وغذاءه القلبي . وكان يتأخر أحيانا عنه كما في قصة أصحاب الكهف ، ناسب أن يذكر بعد رزق أهل الجنة، ما يتعلق برزق سيدهم الذى هو أصل رزقهم ، وسبب نعيمهم فقال على لسان الكلف به (وما نتنزل إلا بأمر ربك) أى ماتتنزل بالوحى الذى هو حياة روحك وغذاء قلبك ، إلا بأمر ربك (له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) أى هو مالك شأننا كله ، لا نملك معه شيئا (وما كان ربك نسيا) أى لا ينسى شيئا أبداً ، فلا بد أن يبعث لك رزقك الروحى فى الوقت الذى يريده هو سبحانه وتعالى (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته) أى ما عليك إلا أن تعبده وتصبر على عبادته ، وهو يتولى إمداد روحك ، وتغذية قلبك . وهذا كما قال عند الكلام على رزقه الحسى (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك) فيؤخذ من الآيتين أن كلا من الرزق المعنوى والحسى يستجلب بعبادة الله وطاعته . وفى الحديث الصحيح «فإن استبطأ أحدكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله ، فإن فضل الله لا ينال بمعصيته» وبهذا وضحت المناسبة بين الآيتين ، والحمد لله على ما ألهم وعلم .

---

(١) قال أبو شامة وغيره فى قوله تعالى : (ورزق ربك خير وأبقى) إنه القرآن .

لطيفة : روى الطبرانى عن أبى مريم الغسانى ، قال :أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت : ولدت لى الليلة جارية . فقال : «والليلة أنزلت علىّ سورة مريم ، سمها مريم (١) »

٢٠ — سورة طه

تناسب السورة السابقة فى اشتمالها على خوارق عجيبة ، تدل على كمال قدرة الله تعالى ، وعنايته بخاصة خلقه .

قلب عصا موسى عليه السلام حية ، وجعل يده بيضاء من غير سوء (قال ألقها ياموسى. فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى) .

وألقته أمه رضيعا فى اليم، فالتقطه عدوه فرعون ورباه فى بيته (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه(٢) اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع

---

(١) هذا من أدلة الصوفية على أن المريد يرجع إلى شيخه فى تسمية أولاده .

(٢) هذا أمر لليم بالقاء موسى فى الساحل عند بيت فرعون ، فنفذ ما أمر به .

على عيني . إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن) .

وألقى عصاه فانقلبت حية . فالتقمت ماصنعه السحرة (وألق مافى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى) .

تنبيه : قوله تعالى (يأخذه عدو لى وعدو له) أخبر فى هذه الآية أن فرعون عدو له ولموسى . والخبر لا يدخله نسخ . ومعنى هذا أن فرعون مات كافراً بلا شك . وقد غفل عن هذا من زعم أن فرعون قبل إيمانه ، فوقع فى خطأ جسيم (١) .

تنبيه آخر : فتحت هذه السورة بالحديث عن القرآن (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) وختمت بالحديث عنه (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ، أو لم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى) أى دليل صحة ما فى الكتب المنزلة السابقة ، وهو القرآن . فتناسب مطلعها ومقطعها .

---

(١) أنظر ما كتبناه فى هذا الموضوع فى سورة يونس من كتاب بدع التفاسير .

٢١ ـ سورة الأنبياء

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى قال فى آخر السورة السابقة (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) قبل النبي صلى الله عليه وسلم (لقالوا) يوم القيامة(ربنا لولا) هلا (أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) التى أوحيت بها إليه (من قبل أن نذل ونخزى) فذكر هنا أنه أرسل إليهم رسولا ، وأنزل عليه آيات فأعرضوا وكذبوا (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) الآيات إلى قوله (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) .

تنبيه : قوله تعالى (محدث) لا يدل على خلق القرآن ، كما زعمت المعتزلة . لأن المراد : محدث النزول ، بدليل (يأتيهم) فإتيانه نزوله ، وهو حادث قطعا . أما كلام الله تعالى ــ وهو القرآن الكريم فقديم ليس بحدث ، لأنه صفة لله تعالى .

مناسبة أخرى : ذكر الله تعالى فى السورة السابقة إنجاءه لموسى وهارون (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولاتخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم) وذكرهنا إنجاءه لإبراهيم (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنايانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم. وأرادوا به كيداً

فجعلناهم الأخسرين) ولنوح (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبناله فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) وهؤلاء زعماء الرسل . أنجى الله كلا منهم بمعجزة ، فنوح أبو البشر الثانى أنجاه الله بالطوفان ، وإبراهيم أنجاه الله بإطفاء النار عنه . وموسى أعظم أنبياء بنى إسرائيل وصاحب شريعتهم ، أنجاه بانفلاق البحر له .

تنبيـــه : فتحت هذه السورة بالحديث عن قرب الساعة (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) وختمت بالحديث عنه (واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) فتناسب المطلع والمقطع .

٢٢ ـــ سورة الحج

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى تكلم عن البعث فى ختام السورة السابقة (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق) الآية ، إلى قوله تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) فأمر هنا بالتقوى استعداداً لذلك اليوم الشديد هوله (ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)

ومناسبة أخرى : ذكر الله تعالى فى السورة السابقة أن جميع الرسل دعوا إلى وحدانية الله وإفراده بالعبادة (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وذكر هنا أنه يحكم بين أهل الأديان المختلفة يوم القيامة (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) وهذا وعيد شديد لجميع فرق الكفر ، لأنهم خالفوا دعوة الرسل المشار إليها فى السورة السابقة .

تنبيهات

الأول : قال محمود بن حمزة الكرمانى فى كتاب العجائب والغرائب : ورد فى القرآن سورتان ، أولهما : ياأيها الناس . فى كل نصف سورة . فالتى فى النصف الأول ، تشتمل على شرح المبدأ – يعنى سورة النساء – والتى فى الثانى ، على شرح المعاد – يعنى هذه السورة .

الثانى : ذكر العلماء : أن هذه السورة من عجائب القرآن . لأنها تشتمل على المكى والمدنى ، والليلى والنهارى ، والحضرى والسفرى ، والحربى والسلمى ، والناسخ والمنسوخ .

فالمكى من رأس ثلاثين إلى آخرها . والمدنى من رأس خمس عشرة إلى رأس الثلاثين ، والليلى خمس آيات من أولها . والنهارى من رأس تسع آيات إلى رأس اثنتى عشر . والحضرى إلى رأس العشرين، والسفرى أولها ، والناسخ (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وهو الحربى . والمنسوخ (الله يحكم بينكم) الآية . وهو السلمى ، نسختها آية السيف .

الثالث : افتتحت هذه السورة بأمر عامة الناس بالتقوى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) واختتمت بأمر المؤمنين بأفراد التقوى (ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وهو نوع لطيف من التناسب بين المطلع والمقطع بالعموم والخصوص والإجمال والتفصيل . عم أولا الناس ، وأجمل التقوى ، ثم خص ثانيا المؤمنين ، وفصل أفراد التقوى .

٢٣ ـ سورة المؤمنون

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى قال فى ختام السورة السابقة (ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون فذكرهنا أوصاف المؤمنين التى أفلحوا بسببها ، وبين الفلاح بأنه وراثة الفردوس (قدأفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون. والذين هم

عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

مناسبة أخرى : قال الله تعالى فى السورة السابقة (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير) فذكر هنا كيفية اخضرار الأرض ، بذكر ماينبته فيها من أنواع الثمار (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) .

تنبيه : قال الزمخشرى فى الكشاف : جعل فاتحة السورة (قد أفلح المؤمنون) وأورد فى خاتمتها (إنه لا يفلح الكافرون) فشتان بين الفاتحة والخاتمة . قلت : وهو تناسب بالتضاد بين المطلع والمقطع .

٢٤ — سورة النور

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى قال فى آخر السورة السابقة (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) والاستفهام

إنكارى ، أنكر حسبانهم أنهم خلقوا عبثا ، ثم نزه نفسه (فتعالى الله الملك الحق) عن العبث ، فلم يخلق عباده إلا ليتعبدهم بالأمر والنهى ، وليردهم إليه بعد فنائهم ليجزيهم على أعمالهم . فذكر فى هذه السورة جملة من الأوامر والنواهى التى تعبدهم بها ، وأشار فى مفتتحها إلى البعث ، بقوله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) ولهذه المناسبة افتتح هذه السورة بقوله تعالى (سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون) فوصفها بثلاث صفات : أنه أنزلها وفرضها ، وأنزل فيها آيات بينات . مع أن سور القرآن تشاركها فى هذه الصفات ، لكنها جاءت هنا لمناسبة رد حسبان الكفار : أنهم خلقوا عبثا ، وللتنبيه على أن ما فيها من أحكام يجب الاهتمام بها ، لتعلقها بصيانة الأنساب والأعراض، وهما من الضروريات الخمس [1] المتفق على وجوب حفظها فى جميع الملل . وهى مبينة بتفصيل فى مبحث المناسبة ، فى مسالك العلة ، من علم الأصول .

---

(١) بقيتها : الدين ، النفس ، المال ، وأضيف إليها العقل . شرع لحفظ الأول قتال الكفار ، وقتل المرتد ، ومحاربة المبتدعة . وشرع لحفظ الثانية القود فى القتل العمد ، والدية مغلظة فى شبهه ، ومخففة فى الخطأ المحض ، والقصاص فيما الجناية على الأعضاء . وشرع لحفظ الثالثة قطع يد السارق . وشرع لحفظ الرابع إيجاب الحد فى المسكر ، والتعزير فى المفتر .

تنبيهات

الأول : تضمنت السورة وجوب حد الزنا والقذف ، ووجوب تصون المرأة ، وعدم إبداء زينتها إلا لأفراد معدودين ، ووجوب غض البصر من الرجال والنساء عما لا يحل ، وحرمة دخول منازل الأجانب إلا باستئذان ، وبيان كيفية الاستئذان فى هذا ، وفى دخول الخدم على مخدوميهم ، والأولاد على آبائهم وأمهاتهم ، وإباحة الأكل من بيوت الأقارب والأصدقاء ، وغير هذا مما يدخل فى تنظيم الأسرة وآداب السلوك . والسورة تشير بهذه الأحكام إلى أنه لا يجوز أن يعيش المؤمنون فى عبث وفوضى ، كما كان الحال فى الجاهلية . بل يجب أن يكون مجتمعهم أفضل المجتمعات : أنسابهم محفوظة من التلويث ، وأعراضهم مصونة ، موفورة الكرامة ، وعلاقة بعضهم ببعض ، أفراداً وجماعات مبنية على العفاف ، والتصون والاحترام . وكل هذا يؤكد الرد على ظن المشركين : أنهم خلقوا عبثا ، لا لحكمة .

الثانى : ورد فى الحديث : أن عبد الله بن أم مكتوم استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن له ، وعنده أم سلمة وميمونة ، فقال : « احتجبا منه » قالتا : إنه أعمى لا يبصرنا . قال « أفعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟ » فهذا الحديث يفسر الآية ، ويبين أن المراد

منها وجوب غض بصر المرأة عن الرجل مطلقا لا فرق بين مبصر وأعمى ، لأنها تشتهيه ، كما أن الرجل يشتهيها ، وهذا مما تساهل فيه الناس اليوم تساهلا كبيراً ، أدى إلى وقوع جرائم خلقية فاحشة . فكم من أعمى يسر له عماه دخول البيوت وتلويث أعراض ، وهو محل عطف من دخل بيوتهم ، ولوث أعراضهم .

الثالث : صرح فى فاتحة السورة باليوم الآخر (ولا تأخذ كم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) وفى خاتمتها بالرجوع إليه (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم) وهو تناسب بين المطلع والمقطع .

٢٥ — سورة الفرقان

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى أثنى فى السورة السابقة على المؤمنين الذين يسلكون الأدب الواجب فى حق النبى صلى الله عليه وسلم ، وذم المنافقين على مخالفتهم ذلك (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين

يتسللون منكم لواذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) فذكر هنا فضل النبي صلى الله عليه وسلم (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) فهذه الآية كالتعليل لما سبق ، وكأن الله تعالى يقول : إنما أوجبت مراعاة الأدب فى حضرته ، وحرمت عليكم أن تنادوه باسمه ، وحذرتكم مخالفة أمره ، لأنه عبدى المختار ، ومحل نظرى من خلقى ، خصصته بتنزيل الفرقان ، وبعثته إلى العالمين .ولهذا أخذ يرد على الكفار كلامهم الذى يدل على جهل بعلو مقامه ، وعدم إدراكهم لجلال منصبه (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا) الآيات . ثم سلاه بقوله سبحانه (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) فاذا طعنوا فيك بذلك ، فقد طعنوا فيهم ، فلا تحزن . وهذا مما يزيد فى توضيح المناسبة وتأكيدها ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : جاء فى فاتحة السورة (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) وفى خاتمتها (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا) وفى هذا تناسب بالمقابلة بين نور الأرض ، ونور السماء . فالنبى صلى الله عليه وسلم نور الأرض وسراجها ، سماه الله سراجاً منيراً (ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً

منيراً) ونوره أقوى من سرج السماء وكواكبها ، وأعم منها وأبقى ، لأنه ينير القلوب ، وهو مشرق لايعتريه غروب . ولهذا قال جابر بن سمرة رضى الله عنه : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة أضحيان — مقمرة — وعليه حلة حمراء ، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر ، فلهو فى عينى أحسن من القمر. يشير إلى ما كساه الله من نور النبوة وجمالها ، وإلى ما ألقى عليه من هيبة الوحى وجلاله .

٢٦ ـ سورة الشعراء

ذكر الله تعالى فى السورة السابقة هجر الكفار للقرآن، وعداوتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وامتناعهم من الإيمان (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا . وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً . . وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) الآيات (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) فافتتح هذه السورة بتسلية نبيه عما لحقه من الحزن بسبب كفرهم وعنادهم (لعلك باخع نفسك) قاتلها غماً وحزنا من أجل (ألا يكونوا مؤمنين) ولعل هنا معناها الأمر ، أى ارحم نفسك ولا تقتلها حزنا على عدم إيمانهم (إن نشأ) وقوع

الإيمان منهم (ننزل عليهم من السماء آية) معجزة تخوفهم (فظلت أعناقهم لها خاضعين) فيؤمنون . ثم ذكر بعض الرسل الذين لقوا من قومهم تكذيبا وعنادا فى الكفر ، زيادة فى تسلية نبيه صلى الله عليه وسلم ، والتسرية عنه . وهذا من دلائل كرامته على مولاه . وفضله لديه .

٢٧ — سورة النمل

لما زعم المشركون أن النبى صلى الله عليه وسلم كاهن ، وأن مايتلوه من القرآن ، يتلقاه من الشياطين . نفى الله ذلك فى السورة السابقة (وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغى لهم وما يستطيعون. إنهم عن السمع لمعزولون . . هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) فأثبت هنا صفات القرآن التى تخالف الكهانة والشعر ، وصرح بأنه متلقى من الله عز وجل (تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة . . وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) ثم ذكر خمس قصص وقعت فى أزمان متعددة ، وأمكنة مختلفة ، تأكيدا لكونه متلقى من حكيم عليم .

تنبيه : فتحت السورة بالحديث عن القرآن ، كما مر ، وختمت بالأمر بتلاوته (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة) مكة (الذى حرمها

وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٢٨ — سورة القصص

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى قال فى السورة السابقة : (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) فقال هنا (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) وذكر قصة موسى عليه السلام ـ وهو رسول بنى إسرائيل ، وصاحب شريعتهم ـ بتفصيل لم يذكر فى سورة أخرى ، وذلك منذ التقاط فرعون له وهو رضيع ، إلى أن عاد إليه رسولا ، وماتبع ذلك من مجادلات ومناقشات ، انتهت بإغراق فرعون وقومه . وذكر قصة قارون . ولم تذكر فى سورة غير هذه . وبعض ذلك مما اختلفوا فيه ، حتى إن بعضهم أنكر قصة قارون .

تنبيهـــان

الأول : قال تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) فى هذه الآية دليلان على كفر فرعون لم يتنبه لهما من أدعى إيمانه .

أحدهما : الإخبار بأن التقاط آل فرعون لموسى ، كان عاقبته أن كان لهم عدواً وحزناً ، وعدو الرسول كافر بلا شك .

ثانيهما : الإخبار بأن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين، أى آثمين .ولو آمن فرعون ، لم يكن عليه إثم ، لأن الإيمان يجب ماقبله(١) وتقدم دليل ثالث فى سورة طه .

الثانى : بدئت السورة بأمر موسى ونشأته ، وقوله (فلن أكون ظهيراً للمجرمين) وخروجه من وطنه ، ثم عوده إليه مؤيداً منصوراً . وختمت بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن لايكون ظهيراً للكافرين ، وتسليته عن إخراجه من مكة ، ووعده بالعودة إليها (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وقال فى حق موسى (إنا رادوه) قال الجلال السيوطى ، وهو تناسب بديع بين مطلع السورة ومقطعها .

٢٩ ــ سورة العنكبوت

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر فى السورة السابقة افتتان بعض المؤمنين الفقراء بزينة قارون ، وتمنيهم أن يكون لهم مثل ماله .

---

(١) إن قيل : هذا خبر عن فرعون قبل إغراقه الذى آمن عنده . قلنا : تقدم فى سورة طه أن الخبر لا يدخله نسخ .

وأن أهل العلم نهوهم ذعن لك ، وأفهموهم أن ثواب الله خير للمؤمن (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذوحظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) فذكر هنا أن المؤمن لابد أن يختبر ويمتحن بالمصائب من فقر وغيره ليظهر صدق إيمانه [1]

---

(١) ولرعاية هذه المناسبة التى هى مقتضى الحال فى هذا الموضع ، لم يذكر حديث عن القرآن عقب كلمة (ألم) كما ذكر عقب إخواتها . أماسورة الروم فلم يأت فى أولها حديث عن القرآن ، لسبب يتعلق بصدقه . ذلك أن جيش الروم وفارس تلاقوا بأذرعات وبصرى فى الشام ، وكانت بينهما حرب . فغلبت فارس ، وبلغ الخبر مكة . فشق ذلك على الصحابة ، وكانوا يحبون انتصار الروم ، لأنهم أهل كتاب . وفرح كفار مكة بانتصار الفرس ، لأنهم وثنيون مثلهم . فنزل (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين) فتراهن أبوبكر رضى الله عنه مع أبى بن خلف على أن الروم سينتصرون فى بضع سنين . وانتصرت الروم على رأس سبع سنين من نزول الآية وكان أبى قد هلك ، فأخذ أبو بكر رضى الله عنه الخطر من أولاده ، وكانت المراهنة جائزة حينئذ ، وظهر صدق ماأخبر به القرآن . قال الزمخشرى . هذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وأن القرآن من عند الله ، لأنها إنباء عن علم الغيب الذى لايعلمه إلا الله .

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله) علم ظهور ومشاهدة (الذين صدقوا وليعلمن) كذلك (الكاذبين) .

تنبيه : قال الله تعالى فى فاتحة السورة (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين) وقال فى خاتمتها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) وهذا من المحسنات البديعية مر مثله فى سورة ابراهيم عليه السلام ، وهو من تناسب المطلع والمقطع .

تنبيه آخر : ذكرت المجاهدة فى القرآن مرتين : الأولى، فى سورة الحج (وجاهدوا فى الله حق جهاده ، والثانية فى هذه السورة (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) والمراد بالجهاد فى الله أى فى ذاته ، ولأجل رضاه : جهادالنفس بكبح جماح شهواتها ، وترويضها بأنواع العبادة والذكر حتى تنقاد. وهذا الجهاد أشق من الجهاد فى سبيل الله الذى هو جهاد الكفار. وقدجاء تسميته بالجهاد الأكبر فى حديث ضعيف ، رواه البيهقى عن جابر رضى اللهعنه أن النبى صلى اللهعليه وسلم قال عند عودتهم من غزوة تبوك وقد وصلوا ضواحى المدينة «قدمتم خير مقدم ، رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد العبد هواه » والقرآن يشير إلى هذا أيضا . حيث ختم الآية بجملة (وإن الله لمع المحسنين فأفادت أن المجاهد فى الله

من المحسنين . والاحسان أعلى مقامات الدين الثلاثة، وهي الإيمان والإسلام والإحسان ، كما فى حديث سؤال جبريل الثابت فى الصحيحين وغيرهما. ولفظ (لمع المحسنين) يفيد تشريفا كبيراً للمجاهدين فى الله بأن الله معهم برعايته وعنايته ، معهم بحفظه وكلاءته ، معهم بتوفيقه وهدايته ، معهم برضاه ونعمته . وللصوفية فى هذا الموضع لطائف وإشارات ، يضيق عنها نطاق العبارات .

٣٠ ـ سورة الروم

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ضرب فى السورة السابقة مثلا للأصنام وعابديها ، بالعنكبوت فى الضعف والوهن ، وعدم القدرة على دفع ضر ، ولا تحصيل نفع (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فذكر فى هذه السورة أدلة كمال قدرته ، وتفرده بالألوهية (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ... ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ... ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ... ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ... ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) .

تنبيه : فتحت السورة بقوله تعالى (وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وختمت بقوله تعالى (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون) فتناسب المطلع والمقطع .

٣١ ـ سورة لقمان

مناسبتها لماقبلها : أن الله تعالى قال فى السورة السابقة تسلية لنبيه عليه الصلاة والسلام ـ (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وماأنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) وهذا تصوير بديع لعناد الكفار ، وإعراضهم عن سماع القرآن ، وعن الاعتبار بنعم الله وآياته . فذكر هنا من أصر منهم على الإعراض ، ولج فيه ، مع ذكر جزائه (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم) وذكرت البشارة على سبيل التهكم .

مناسبة أخرى : ذكر الله تعالى فى السورة السابقة أدلة على كمال قدرته وتفرده بالألوهية . فأعاد هنا بعضها مضافا إليه مالم يذكر هناك ، وصرح بمطالبة الكفار أن يبينوا ما خلقت آلهتهم من دونه ؟ (خلق

السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) .

مناسبة أخرى : ذكر البعث فى السورة السابقة بضع مرات ، منها : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) فبين هنا أن كلا من البدء والإعادة هين عليه ، ليس أحدهما أهون من الآخر ، لأنه كنفس واحدة (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة[1]) وهذه مناسبات ظاهرة ، وبالله التوفيق .

٣٢ — سورة السجدة

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر فى ختام السورة السابقة إختصاصه بعلم مفاتح الغيب (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) فذكر فى مفتتح هذه السورة اختصاصه بالخلق والتدبير (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع

---

(١) هذه الآية دليل على أن أهون فى الآية بمعنى هين .

أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) والمقصود فى الموضعين بيان إحاطة علمه . وسعة قدرته ، وإحكام تدبيره ، وذيل الآية الثانية بأنه عالم الغيب والشهادة ، للاشارة إلى أن الخلق والتدبير موافقان لما سبق فى العلم القديم .

تنبيه : سورة العنكبوت والروم ولقمان والسجدة تتناسب فى أنها مفتتحة بحرف (ألم) ونزلت بمكة . وتحدثت عن المبدأ والمعاد .

٣٣ ـ سورة الأحزاب

مناسبتها لماقبلها : أن الله تعالى توعد الكفار ـ فى السورة السابقة ـ بأن يذيقهم من العذاب الأدنى فى الدنيا بالقتل والأسر ، قبل العذاب الأكبر ، وهو عذاب الآخرة (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) فأخبر هنا بتحقيق الوعيد المذكور (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذجاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ... ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) الآية .

تنبيهان

الأول : اشتملت هذه السورة على جملة من فضائل النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعض خصائصه ، ومايجب له من حقوق ، وعلى فضل أزواجه وأهل بيته ، والصادقين من أصحابه رضى الله عنهم . فهى كلها تنويه بمقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان لرفعة قدره ، راجع كتابنا « فضائل النبي فى القرآن » أما قصة زيد وزوجه . فقد بينا فى « خواطر دينية » بالأدلة الدامغة ، بطلان ماذكره فيها كثير من المفسرين ، مما لا يليق بجلال منصب النبوة ، وبالله التوفيق .

الثانى : فتحت السورة بأمر النبي بالتقوى (ياأيها النبي اتق الله) وختمت بأمر أمته بها (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٣٤ ـ سورة سبأ

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر ـ فى ختام السورة السابقة ـ سؤال الكفار عن الساعة ، وهو سؤال استهزاء ، وأجابهم إجابة مبهمة تتضمن تهديداً بقربها (يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ومايدريك لعل الساعة تكون قريبا) فذكر هنا تصريحهم بإنكارها ورد عليهم ، مع تأكيد الرد بمؤكدات (وقال الذين كفروا لاتأتينا

الساعة قل بلى وربى لتأتينكم) أماقوله تعالى (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) الآية ، فهو لبيان إحاطة علمه . بحيث لا يضل عنه مخلوق ، بل يحصيهم جميعا لينال كل فرد جزاء عمله .

٣٥ - سورة فاطر

مناسبتها لما قبلها : أنها افتتحت بالحمد كسابقتها ، وتناسبتا من موضوعهما الذى افتتحتا بالحمد لأجله ، وهو تفصيل بعض النعم الدينية والدنيوية . ويلاحظ أن افتتاح السورة السابقة ، كان بحمد الله مالك مافى السموات وما فى الأرض . وافتتاح هذه بحمد الله فاطرهما أى مبدعهما لاعلى مثال سابق . وهذا نوع من الاحتباك . ذكر فى السورة السابقة ملكيته لما فى السموات ومافى الأرض . وسكت عنهما ، وذكر هنا إبداعه لهما ، وسكت عما فيهما . وهو من المحسنات البديعية .

تنبيهان

الأول : قال بعض العلماء : افتتاح سورة فاطر بالحمد لله ، مناسب لختام ماقبلها من قوله تعالى (وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل) كما قال تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) .

الثانى : أخرج أبو عبيد فى فضائل القرآن عن مجاهد عن ابن عباس ، قال : كنت لا أدرى مافاطر السموات ؟ حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . يقول : أنا ابتدأتها . قلت : هذا اللفظ ومثله يسمى غريب القرآن . وقد أفرد بالتصنيف . ألف فيه أبو عبيدة وابن دريد وابن الأنبارى وتلميذه العزيزى . ومن أحسنها كتاب مفردات القرآن ، للراغب الأصفهانى .

قال ابن الصلاح :وحيث رأيت فى كتب التفسير :قال أهل المعانى. فالمراد به : مصنفو الكتب فى معنى القرآن ، كالزجاج والفراء والأخفش وابن الأنبارى . قلت : وكذلك إعرابه حيث ورد فى حديث أو أثر . أخرج البيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعا « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » ورواه عن عمرو بن مسعود موقوفا ، وروى أيضا من حديث ابن عمر مرفوعا « من قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة ، ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات » قال الحافظ السيوطى : المراد بإعرابه معرفة معانى ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة ، وهو مايقابل اللحن ، لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ، ولا ثواب فيها[1] .

---

(١) ولأنه إصلاح مستحدث ، لا يجوز حمل كلام الشارع عليه ، وقد أخطأ من فعل ذلك خطأ كبيراً . أنظر كتابنا « بدع التفاسير » .

٣٦ ـ سورة يس

حكى الله تعالى فى السورة السابقة ، عن الكفار حلفهم. لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من أهل الكتاب الذين كذبوا رسلهم ، فلما جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم ، حنثوا فى يمينهم وكذبوه ، وزادوا نفوراً وتباعداً عن الهدى ، مستكبرين عن الإيمان ، وأرادوا المكر بنبيهم، حيث عزموا على تقييده أو نفيه أو قتله ، وما دروا أن مكرهم السيء لا يحيط إلا بهم ، ولا يعود ضرره إلا عليهم ، فهم بتكذيبهم ومكرهم ، ينتظرون ما حل بالمكذبين قبلهم . لأن سنة الله مع مكذبى رسله لا تتبدل ولا تتحول (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا استكبارا فى الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينتظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وذكر فى هذه السورة إنزال الكتاب على رسوله ، لينذر أولئك القوم الذين لم يأتهم نذير ، فهم غافلون عن الإيمان والهدى ، وأن العذاب حق على أكثرهم لكفرهم . وأشار إلى عذابهم يوم القيامة بأن تجعل الأغلال فى أيديهم وتضم إلى أعناقهم ، كما أرادوا أن يقيدوا نبيهم ونذيرهم . بعد أن افتتحها بالقسم على رسالته ، رداً لإنكارهم لها

(يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون) فكانت المناسبة بينهما ظاهرة ، والله أعلم بسر كلامه .

تنبيه : ورد فى فضل سورة يس أحاديث ضعيفة وواهية ، أمثلها حديث معقل بن يسار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قلب القرآن يس لايقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرءوها على موتاكم » رواه أحمد والأربعة إلا الترمذى ، وصححه الحاكم ، وفيه كلام . وهو أصل فى قراءة هذه السورة على الأموات . لكن حمل ابن القيم لفظ الموتى فيه على المحتضرين ، قال : ليتذكروا توحيد الله والبعث وما يتبعه من نعيم أو عذاب . ونازعه الشوكانى بأن الأصل حمل اللفظ على حقيقته وهو الميت ، لا المحتضر . وسميت يس قلب القرآن لأن ما فيها من التوحيد والبعث ودلائلهما محله القلب ، لأنه من المعتقدات القلبية .

وقال الغزالى : سميت يس قلب القرآن ، لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر والنشر ، وهو مقرر فى هذه السورة بأبلغ وجه ، فجعلت قلب القرآن لذلك . وقال النسفى : يمكن أن يقال : إن هذه السورة ليس

فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة : الوحدانية ، والرسالة ، والحشر ، وهو القدر الذى يتعلق بالقلب ، وأما الذى باللسان والأركان ففى غير هذه السورة فلما كان فيها أعمال القلب لاغير ، سماها قلبا، ولهذا أمر بقراءتها عند المحتضر . لأن فى ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة ، والأعضاء ساقطة ، لكن القلب قد أقبل على الله تعالى ، ورجع عما سواه ، فيقرأ عنده مايزداد به قوة فى قلبه ، ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة . قلت : هذا يؤيد تأويل ابن القيم . كما يؤيده ما أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى الفضائل باسناد ضعيف عن أبى ذر مرفوعا « ماميت يموت فيقرأ عنده يس إلا هون الله عليه » وفى معجم الطبرانى من حديث أنس « من دام على قراءة يس كل ليلة ثم مات مات شهيداً » وللترمذى والدارمى من حديث أنس « إن لكل شىء قلبا وقلب القرآن يس ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

وفى الموطأ للامام مالك عن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفرله » صححه ابن حبان . أما حديث يس لما قرئت له . فلا أصل له . لكن الشيخ اسماعيل الجبرتى وأصحابه باليمن ، جربوا قراءتها لقضاء الحاجات ، بحيث صارت عندهم قطعية .

نعم. روى البيهقي عن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعا «سورة يس تدعى في التوراة المعممة تعم صاحبها بخيرى الدنيا والآخرة، وتدعى المدافعة والقاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضى له كل حاجة» قال البيهقي: حديث منكر. وروى المحاملي في أماليه من حديث عبد الله بن الزبير «من جعل يس أمام حاجة قضيت له» وله شاهد مرسل عند الدارمي. وروى ابن الضريس عن سعيد بن جبير أنه قرأ على رجل مجنون سورة يس فبرىء. وفي المستدرك للحاكم عن أبي جعفر محمد بن على، قال: من وجد في قلبه قسوة فليكتب يس في جام بماء ورد وزعفران ثم يشربه وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن عن يحى بن أبي كثير قال: من قرأ يس إذا أصبح لم يزل في فرح حتى يمسى ومن قرأها إذا أمسى لم يزل في فرح حتى يصبح، أخبرنا من جرب ذلك. قلت: المدار في هذا على التجربة. أما الأحاديث فضعيفة كما قلنا، سوى ما نبهنا على صحته.

٣٧ — سورة الصافات

ذكر الله تعالى في السورة السابقة استبعاد الكافر للبعث ورد عليه (أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها

أول مرة وهو بكل خلق عليم) الآيات . فأعاد الكلام هنا على منكرى البعث جميعا . مع ذكر جزائهم (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون . قل نعم وأنتم داخرون. فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون . وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين . هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) الآيات . ثم ذكر اطلاع بعض أهل الجنة على النار ، وفيها صديقه الذى كان ينكر البعث فى الدنيا ومخاطبته إياه على سبيل الشماتة : (قال قائل منهم إنى كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون .قال هل أنتم مطلعون. فاطلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين)ثم أخذ يعيد عليه كلامه فى الدنيا تبكيتاً واستهزاء (أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا) ما نحن فيه من النعيم (لهو الفوز العظيم) وهذه مناسبة واضحة ، والله أعلم .

تنبيه : قال أبو بكر بن العربى المعافرى : أخبرنا أبو بكر الفهرى قال : أنبأنا التميمى ، أنبأنا هبة الله المفسر ، قال : نزل القرآن بين مكة والمدينة إلا ست آيات ، نزلت لا فى الأرض ولا فى السماء : ثلاث فى سورة الصافات (وما منا إلا له مقام معلوم)الآيات الثلاث . وواحدة فى الزخرف (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) الآية ، والآيتان

من آخر سورة البقرة ، نزلت ليلة المعراج . قال ابن العربى : ولعله أراد فى القضاء بين السماء والأرض . قال الحافظ السيوطى : لم أقف على مستند لما ذكره فى الآيات المتقدمة إلا آخر البقرة ، فيمكن أن يستدل له بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إلى سدرة المنتهى ، الحديث . وفيه : فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ثلاثا : أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن يشرك من أمته بالله شيئا المقحمات [1] . قلت : وجه مناسبة الآيات الثلاث المذكورة فى هذه السورة لما قبلها من الآيات : أن الله تعالى لما حكى قول الكفار الذين جعلوا الملائكة بنات له سبحانه فقال : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) والمراد بالجنة الملائكة ، لاجتنانهم أى استتارهم (ولقد علمت الجنة إنهم) أى المشركين (لمحضرون) فى العذاب يوم القيامة . نزه نفسه عما وصفوه به (سبحان الله عما يصفون) ثم استثنى المؤمنين (إلا عباد الله المخلصين) فانهم غير محضرين فى العذاب . ثم خاطب المشركين (فانكم وما تعبدون) من الآلهة (ما أنتم عليه) على الله (بفاتنين) أحدا من عباده (إلا من هو صال الجحيم) مثلكم . ثم حكى كلام

---

(١) بضم الميم وسكون القاف وكسر الحاء . يعنى الكبائر ، لأنها تقحم مرتكبها أى تدخله النار .

الملائكة يتبرأون من المشركين وعبادتهم (وما منا) أحد (إلا له مقام معلوم) لا يتعداه فى عبادة مولاه، منا الراكع ومنا الساجد ومنا القائم (وإنا لنحن الصافون) أجنحتنا أو أقدامنا فى صلاتنا (وإنا لنحن المسبحون) المنزهون الله عما يصفه به المشركون من ولديتنا له، وما نحن إلا عبيده المخلصون. فظهر تناسب الآيات وترابطها، والحمد لله.

تنبيه آخر: إن كان قوله تعالى: (والصافات صفا) وصفا للملائكة – وهو الراجح – فهو مع قوله تعالى هنا (وإنا لنحن الصافون) من تناسب المطلع والمقطع.

٣٨ – سورة صٓ (١)

مناسبتها لما قبلها: الإشارة إلى جملة من قصص الأنبياء وما امتحن به بعضهم. ذكر فى السورة السابقة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس. وذكر فى هذه السورة داود وسليمان وأيوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل وإسحاق ويعقوب.

---

(١) من المناسبات اللطيفة أن افتتاح هذه السورة بحرف (ص) مؤذن بما ذكر فيها من خصومات متنوعة (وهل أتاك نبأ الخصم .. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار .. ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون).

مناسبة أخرى : بين فى ختام تلك السورة كفر المشركين بنسبتهم الملائكة بنات الله تعالى (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون) وبين هنا كفرهم بنوع آخر ، وهو اعتقاد آلهة مع الله ، وتكذيبهم للرسول ، (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب) الآية ، وهذه مناسبة ظاهرة .

تنبيه : فتحت هذه السورة بذكر القرآن (ص والقرآن ذى الذكر) (أأنزل عليه الذكر من بيننا) وختمت به (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين) فتناسب المطلع والمقطع .

٣٩ — سورة الزمر

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى أمر نبيه — فى ختام السورة السابقة أن يقول للكفار : إنه ليس من المتكلفين ، أى المتقولين للقرآن من قبل أنفسهم (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) فذكر هنا أنه تنزيل من الله العزيز الحكيم ، وأكد إنزاله بالحق ، لإفراد الله بالعبادة ، على خلاف عمل المشركين الذين ذكر عنهم فى

السورة السابقة أنهم اتخذوا آلهة مع الله . وحكى عنهم هنا قولهم : أنهم إنما عبدوها لتقربهم إليه (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون)

٤٠ — سورة غافر

ذكر الله تعالى في السورة السابقة أنه يحكم يوم القيامة بين المسلمين والمشركين (إن الله يحكم بينهم) بين المسلمين الموحدين والكفار المشركين (في ماهم فيه يختلفون) وهو التوحيد والشرك . وحكمه أن يدخل المسلمين الجنة . والكفار النار . فذكر هنا حكمه المذكور (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) يقولون (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم) جزاء (السيئات ومن تق) جزاء (السيئات يومئذ) يوم القيامة (فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم . إن الذين كفروا ينادون) يوم القيامة (لمقت الله) أنفسكم على

شركـكم به (أ كبر من مقتكم أنفسكم اليوم حين اطلعتم على بطلان عملـكم (إذ تدعون إلى الإيمان) فى الدنيا (فتـكفرون . قالوا ربناأمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) يقولون هذا بعد دخولهم النار (ذلـكم) العذاب الذى أنتم فيه (بأنه إذا دعى الله وحده) فى الدنيا (كـفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحـكم لله) حيث حكم عليـكم بالعذاب الدائم (العلى الـكبير) وهذه مناسبة واضحة .

مناسبة أخرى : ذكر الله تعالى فى ختام السورة السابقة نهاية الدنيا وقيام الناس للبعث ، ومصير الـكفار إلى النار ، والمتقين إلى الجنة (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) الآيات ، إلى آخر السورة . فافتتح هذه السورة ببعض صفاته التى تناسب ما مر (حم . تنزيل الـكتاب من الله العزيز العليم) بخلقه لا يعزب عنه من أعمالهم شىء ، فيجازى كلا منهم بعمله (غافر الذنب) للمؤمنين (وقابل التوب) ممن تاب منهم ومن غيرهم (شديد العقاب) للـكفار بإدخالهم جهنم زمرا (ذى الطول) صاحب الفضل ، حيث تفضل على المتقين فأدخلهم الجنة زمرا ، بعد أن عمهم وغيرهم فضله فى الدنيا (لا إله إلا هو إليه المصير)

المرجع بعد فناء العالم ، حيث يلقى المؤمنون والكافرون جزاءهم المذكور فيما سبق .

٤١ ـ سورة فصلت

تناسبت هذه السورة مع التى قبلها فى الموضوع ، وهو ذكر أدلة وحدانية الله تعالى ، وذم الشرك ، والإنذار لما يحصل للمشركين من الهلاك فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة .

وكذلك بقية آل حم ، كلها متناسبة فى الموضوع المذكور ، لاشتراكها فيه وفى البدء بحرف (حم) وفى كونها نزلت بمكة .ونذكر مع ذلك مناسبة لكل سورة ، بحسب ما يفتح الله تعالى .

تنبيه : فتحت السورة بالحديث عن القرآن (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) وختمت بالحديث عنه (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) فتناسب فيها المطلع والمقطع .

٤٢ ـ سورة الشورى

من المناسبة بينها وبين ماقبلها : أن الله تعالى قال فى ختام السورة السابقة يخاطب نبيه (قل أرأيتم إن كان) القرآن (من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) فأثبت فى افتتاح هذه السورة أن

الله أوحى إلى نبيه كما أوحى إلى الأنبياء من قبله (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) فهو رد لكفر المشركين بالقرآن ، وإثبات أنهم فى ضلال بعيد .

تنبيه : فتحت السورة بالحديث عن الوحى (كذلك يوحى إليك) الآية . وختمت بالحديث عنه (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٤٣ ـ سورة الزخرف

ذكر الله فى ختام السورة السابقة أنه أوحى إلى رسوله روحا أى قرآنا تحيا به القلوب ، وقد كان قبل الوحى لايعلم ماهو الكتاب ؟ ولاماهى شرائع الإيمان ؟ فصار به هاديا ودالا إلى صراط مستقيم (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ماالكتاب ولاالإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) الآية . فذكر هنا أنه جعله قرآنا عربيا ليعقله قومه ، ويفهموا مافيه من أحكام وتشريعات ، وأن الله لم يكن ليهملهم لإشراكهم ، فلا ينزل عليهم كتابا . (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم . أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوما مسرفين) وهذه من المناسبات الظاهرة ، والله أعلم .

تنبيه : ذكر فى أوائل السورة قوله تعالى (وجعلوا له من عباده جزءا) الآيات . وفى أواخرها قوله تعالى : (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) فتناسب مطلعها ومقطعها

٤٤ — سورة الدخان

من المناسبة بينها وبين ما قبلها : أن الله تعالى ذكر فى السورة السابقة شكوى نبيه من عدم إيمان قومه ، وأمره بالصفح عنهم ، وهددهم بأنهم سوف يعلمون ما يحصل لهم من العذاب (وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) فبين هنا نوع العذاب الذى توعدهم به (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم. ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون . إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) وهذه مناسبة ظاهرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

مناسبة بين فاتحة السورتين : فتحت تلك بالحديث عن القرآن (حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وفتحت هذه بالحديث عنه أيضا (حم والكتاب المبين. إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين)

تنبيه : فتحت السورة بالحديث عن القرآن كما مر آنفا ، وختمت بالحديث عنه (فإنما يسرناه) القرآن (بلسانك لعلهم يتذكرون) فتناسب فيها المطلع والمقطع .

٤٥ ـ سورة الجاثية

ذكر الله تعالى فى ختام السورة السابقة أنه يسر القرآن بلسان نبيه أى بلغته العربية ، ليتذكر العرب به (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرن) فذكر هنا أن الكتاب أى القرآن أنزله الله العزيز الحكيم (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) ومن حكمته أن جعله عربيا ، ليملك على العرب — وهم أئمة اللسان ، وزعماء البيان — أزمة قلوبهم ، ويسوقهم بسوط الحجة ، إلى الاعتراف بفصاحته ، والعجز عن معارضته ، وتلك مناسبة ظاهرة ، والله أعلم بسر كتابه .

تنبيه : فتحت السورة بصفتى العزيز الحكيم ، كما مر آنفا ، وختمت بهما (وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) فتناسب المطلع والمقطع .

وتناسبا أيضا بذكر السموات والأرض فى الافتتاح (إن فى خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين) وبذكرها فى الختام (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين)

٤٦ ـــ سورة الأحقاف

من المناسبة بينها وبين ما قبلها : أن الله تعالى ذكر فى السورة السابقة ما يحصل للكفار من العذاب يوم القيامة، لإعراضهم عن القرآن، واستكبارهم عن الإيمان (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين) إلى قوله تعالى (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) فذكر هنا أن الكتاب الذى أعرضوا عنه تنزيل من الله العزيز الحكيم، وذكر أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ليدل على ربوبيته ووحدانيته . وأن لهذا العالم أجلا ينتهى عنده ، ويأتى يوم القيامة بما فيه من العذاب الذى أنذروا به فيما سبق . وهم عما أنذروا معرضون لا يؤمنون (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون) .

مناسبة أخرى : ختمت السورة السابقة بصفتى العزيز الحكيم وفتحت هذه بهما أيضا .

تنبيه : فتحت السورة بالخبر عن إعراض الكفار عما أنذروا به كما سبق ، وختمت بالخبر عن إهلاكهم (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وهو تناسب بين المطلع والمقطع .

٤٧ — سورة محمد عليه السلام

ذكر الله تعالى فى السورة السابقة أنه صرف إلى النبى صلى الله عليه وسلم نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه أنصتوا له ، فلما انتهى ذهبوا إلى قومهم منذرين بما سمعوه مؤمنين به (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) الآية . فذكر هنا أن من الإنس من لم يفقه القرآن ، ولافهم له معنى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) . بل بلغ بهم الجهل والعناد أن أخرجوا النبى صلى الله عليه وسلم من بلده (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) والمناسبة فى هذا بيان ما بين جنس الجن والإنس من التباين ، وأن الجن أسرع إلى الطاعة من الإنس ، وهى مناسبة ظاهرة .

تنبيه : سألنى المرحوم الدكتور محمد عبد السلام العبادى . لم قال الجن : (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) ولم لم يذكروا عيسى ؟

فأجبت : لم يذكروا عيسى لسببين :

أحدها : أن عيسى بعث متمما لشريعة موسى ، وتابعا لها .

ثانيهما : أن الإنجيل أغلبه مواعظ ألقاها عيسى على الحواريين ، ولم يكتب فى كتاب . والأناجيل الموجودة اليوم ، كتبت بعد رفع عيسى بزمن طويل ، وهى تحتوى على سيرته وبعض أقواله . بخلاف التوراة ، فإنها كانت مكتوبة فى الألواح . وتشتمل على تشريع وقصص ، فأشبهت القرآن من هذه الجهة ، فمن ثم ذكروا موسى عليه السلام . ويجوز أن يكونوا على شريعته . وإن لم يكن مرسلا إليهم . لأن من اتبع شريعة صحيحة قبل نسخها ، كان ناجيا عند الله ، وإن لم يكلف باتباعها . وعيسى عليه السلام لم ينسخ من شريعة موسى إلا قليلا .

مناسبة أخرى : ختمت السورة السابقة بقوله تعالى : (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وافتتحت هذه ببيان الفاسقين : أنهم الكافرون ، مع زيادة فائدة ، هى الإخبار بأن الله أبطل أعمالهم الصالحة لكفرهم (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) وهذه مناسبة واضحة .

تنبيـه : فتحت السورة بالآية المذكورة ، وذكر فى خاتمتها قوله تعالى : (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٤٨ ــ سورة الفتح

حض الله تعالى فى السورة السابقة على جهاد الكفار ، وذم المنافقين على جبنهم وتلكئهم عن الجهاد ، وتواطئهم مع المشركين على عداوة النبى عليه الصلاة والسلام (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم. طاعة وقول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) الآيات ، إلى قوله تعالى : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم) .

فأثنى فى هذه السورة على المؤمنين الذين بايعوا النبى عليه الصلاة والسلام على الجهاد ، وأخبر برضاه عنهم ، وأثابهم فتحا ومغفرة لذنوبهم ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار . كما عرج على المنافقين بالذم والوعيد ، وهذه مناسبة فى غاية الوضوح ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : فتحت السورة بذكر ما امتن الله به على نبيه من الفتح المبين ، والنصر العزيز ، وهداية الصراط المستقيم ، وإنزال السكينة فى قلوب أصحابه لزيادة إيمانهم (إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما. وينصرك

الله نصرا عزيزا . هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) وختمت بالثناء عليه وعلى أصحابه . (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) فتناسب فيها المطلع والمقطع .

٤٩ ـ سورة الحجرات

ذكر الله تعالى فى السورة السابقة بعض ما أنعم به على نبيه من الفتح المبين ، والعصمة المكنى عنها بالمغفرة ، وإتمام النعمة ، والنصر العزيز ، والهداية إلى الصراط المستقيم ، وإرساله بالهدى ودين الحق . فذكر هنا ما يجب فى حقه من الاحترام والتوقير ، لأنه رسوله المختار ، وصفوته من خلقه . فتوقيره توقير لله عز وجل ، كما أن مبايعته مبايعة له حسبما تقدم فى السورة السابقة .

مناسبة أخرى : ختم الله تعالى السورة السابقة بالثناء على الصحابة، وذكر لهم مثلين فى التوراة والإنجيل. ووعدهم مغفرة وأجرا عظيما . فافتتح هنا ببيان مايجب عليهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من التعظيم والأدب لأن بصحبته نالوا الشرف بذلك الثناء، وباتباعه فازوا بسعادة الدارين ، فلا ينبغى لهم التقدم بين يديه . ولا مخاطبته كما يخاطب بعضهم بعضا . (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم. ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) . وتلك مناسبة ظاهرة ليس بها خفاء .

تنبيه : فتحت السورة باثبات صفتى السمع والعلم لله تعالى ، كما مر آنفا . وختمت باثبات صفتى العلم والبصر (إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) وهو من تناسب المطلع والمقطع .

٥٠ — سورة ق (١)

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى وجه فى السورة السابقة خطابا للناس عامة : أنه خلقهم من ذكر وأنثى ، وجعلهم شعوبا وقبائل ، ليتعارفوا فيما بينهم. لا ليتفاخروا بالأنساب والأحساب ، وأن أكرمهم عنده أتقاهم (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) فذكر هنا ماأعد للمتقين من الكرامة عنده يوم القيامة (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد. هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ. من خشى الرحمن بالغيب

---

(١) كثر فى هذه السورة ذكر كلمات فيها حرف (ق والقرآن المجيد .. قد علمنا ماتنقص الأرض منهم .. والنخل باسقات .. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق .. معها سائق وشهيد .. وقال قرينه هذا مالدى عتيد. ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد.. فألقياه فى العذاب الشديد قال قرينه ربنا ماأطغيته .. قال لاتختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . . يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد . . وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد .. إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب .. فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وهى مناسبة واضحة بين مفتتح السورة وبين بقيتها .

وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) والله تعالى أعلم .

تنبيـه : فتحت السورة بذكر القرآن (ق . والقرآن المجيد) وختمت به أيضا (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) فتناسب فيها المطلع والمقطع .

٥١ — سورة الذاريات

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر فى السورة السابقة ماأعد للكفار من عذاب ، وللمؤمنين من الثواب ، وختمها بذكر صيحة البعث وما يعقبها (واستمع يوم ينادِ المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) فأقسم سبحانه وتعالى هنا عدة أقسام على أن ما يوعدون من البعث صادق ، وأن الدين ـ وهو الجزاء المذكور فيما مر ـ واقع لامحالة (والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع) وهذه مناسبة واضحة ، والله تعالى أعلم .

تنبيـه : فتحت السورة بذكر يوم البعث والجزاء ، وختمت

بذكره أيضا (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٥٢ ــ سورة الطور

ختم الله تعالى السورة السابقة بأن للكفار من هذه الأمة نصيبا من العذاب مثل نصيب أصحابهم الكفار الهالكين قبلهم ، فلا يستعجلون به (فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) فأقسم هنا فى هذه السورة أقساما عظيمة ، على أن العذاب واقع بالكفار يوم القيامة ، غير مدفوع عنهم (والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع . يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين) الآية .

مناسبة أخرى : تناسبت هذه السورة والتى قبلها فى افتتاح كل منهما بالقسم على حقية البعث ، وعذاب الكفار .

تنبيه : ذكر فى فاتحة السورة وعيد الكفار بأن العذاب واقع بهم يوم القيامة ، وذكر فى خاتمتها مثل ذلك (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون . يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) فتناسب فيها المطلع والمقطع .

٥٣ — سورة النجم

حكى الله تعالى فى السورة السابقة قول الكفار فى النبى صلى الله عليه وسلم (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) فأقسم هنا على تبرئة نبيه مما اتهموه به . وأنه لا ينطق إلا عن وحى وتعليم منه (والنجم إذا هوى. ماضل صاحبكم وما غوى. وماينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى) الآيات . نفى عنه الضلال والغى والنطق عن الهوى ، وأثبت أن كلامه إنما هو بالوحى ، وأنه يتلقاه من جبريل عليه السلام . وهذا أبلغ ما يكون فى رد كلام الكفار السابق .

مناسبة أخرى : ختمت السورة السابقة بقوله تعالى (وإدبار النجوم) فافتتحت هذه بقوله سبحانه (والنجم إذا هوى) .

تنبيه : فتحت السورة بالحديث عن النبى عليه الصلاة والسلام كما مر ، وختمت بالحديث عنه أيضا (هذا نذير من النذر الأولى) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٥٤ ـــ سورة القمر

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى أخبر فى ختام السورة السابقة بقرب الساعة وأنه لا يكشفها أى يظهرها إلا هو سبحانه (أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة) فذكر هنا قربها أيضا مع ظهور علامة من علاماتها (اقتربت الساعة وانشق القمر) وأخبر بأن الكفار أعرضوا عن آية انشقاقه (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)

مناسبة أخرى : أخبر تعالى هناك أن الكفار أعرضوا عن القرآن (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون . ولا تبكون وأنتم سامدون) أى لاهون عن التذكر به ، والتدبر لما فيه . فأخبر هنا أنه يسر القرآن للتذكر والاتعاظ وأمر بالاتعاظ به (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) تكررت هذه الآية فى هذه السورة عدة مرات للحض على التذكر بالقرآن والاتعاظ به ، على خلاف ما اتبعه الكفار من الإعراض عنه [١] .

---

(١) مناسبة ثالثة . أشير فى السورة السابقة إلى أربع قصص على على سبيل الاجمال (وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ماغشى) وذكرت فى هذه السورة على سبيل التفصيل .

تنبيه : فتحت السورة بذكر الساعة كما مر آنفا ، وختمت بذكرها أيضا (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) فتناسب المطلع والمقطع .

٥٥ — سورة الرحمن

مناسبتها لما قبلها : أن تلك السورة ختمت باسمين من أسماء الله الحسنى (إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) فتحت هذه السورة بذكر اسمه الرحمن ، إشارة أن إلى رحمته عمت الدنيا والآخرة ، وأن أهل الجنة إنما دخلوها ، ونالوا تلك الحظوة برحمته . وفى الحديث الصحيح : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه » وبها تعلموا القرآن ، ووفقوا للعمل به (الرحمن علم القرآن)

وأيضا فإن الأسماء الثلاثة صيغ تكثير ، فمعنى مليك : واسع الملك ، ومقتدر : واسع القدرة ، والرحمن : واسع الرحمة ، وفى ذلك إشارة إلى أن مافيه أهل الجنة من نعيم وحظوة لاينقطع ولايزول ، لأن مصدره من هو موصوف بتلك الصفات العظامية .

وأيضا فإن السورة السابقة ذكرت ما يلقاه المتقون من النعيم فى الجنة على سبيل الإجمال ، ففصلت هذه السورة بيان النعيم بذكر

أنواعه المختلفة ، فى جنات متعددة . كما بينت أنه لايختص بالمتقين من الإنس ، بل يشمل معهم المتقين من الجن (١) فما فى هذه السورة ، تفصيل وبيان لما فى تلك ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : روى الترمذى والحاكم باسناد صحيح عن جابر رضى الله عنه قال : خرج رسول الله عليه الصلاة والسلام على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن ، من أولها إلى آخرها . فسكتوا . فقال : « لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردودا منكم . كنت كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » قلت : يستحب قول هذا عند سماع هذه الآية ، وهو من الأدب المأخوذ عن الجن . ويدخل فى رواية الأكابر عن الأصاغر . وهى فن لطيف ، من فنون علم الحديث الشريف .

أما حديث « لكل شىء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن » رواه البيهقى فى الشعب من حديث على عليه السلام . فهو حديث ضعيف . وسميت بذلك لاشتمالها على وصف الجنان ونعيمها ، وما فيها من حور مقصورات فى الخيام ، وهن عرائس الجنان .

---

(١) وفى هذا رد على من زعم ن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاؤهم أن يجاروا من النار . وهو قول باطل ، وإن قاله بعض أئمة أهل السنة .

٥٦ ـ سورة الواقعة

ذكر الله تعالى فى السورة السابقة نعيم أهل الجنة بأسباب ، فكان من المناسب أن يقسم هنا المخلوقات إلى ثلاثة أقسام :

السابقون : أى المقربون .

وأصحاب اليمين . وهم أهل الجنة .

وأصحاب المشأمة ، أى أصحاب الشمال ، أو المكذبون الضالون ، وهم أهل النار ، المعبر عنهم بالمجرمين فى السورة السابقة .

فاستوفت السورتان أنواع المنعمين والمعذبين ، أو السعداء والأشقياء والله تعالى أعلم .

تنبيه : فتحت السورة بتقسيم الخلق إلى ثلاثة أنواع : (وكنتم أزواجا ثلاثة : فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة؟ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة؟ والسابقون السابقون) وختمت بهذا التقسيم أيضا (فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم . وتصلية جحيم) فتناسب فيها المطلع والمقطع .

فائدة : روى أبو عبيد فى فضائل القرآن والحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، مرفوعا : « من قرأ كل ليلة سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبداً » هذا حديث ضعيف لا يصح عن

النبي عليه الصلاة والسلام ، لكن ثبت من كلام ابن مسعود ، وهو يدخل فى باب الخواص ، والمدار فيها على التجربة . ولعل السر فى هذه السورة : أن تاليها كل ليلة ، يتلو فيها قول الله تعالى يخاطب الكفار — بعد تعداد نعمه عليهم — (وتجعلون رزقكم) أى شكر رزقكم (أنكم تكذبون) فيحمله على شكر رزق الله ونعمته ، حتى لايكون مثلهم . فيفيض الله عليه الرزق ، لقوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) والله تعالى أعلم .

٥٧ — سورة الحديد

بينت السورة السابقة أنواع الخلق يوم القيامة ، وقسمت أهل الجنة قسمين : سابقين مقربين . وأصحاب ميمنة . وذكرت فى أهل النار نوعا واحداً ، هم أصحاب المشأمة المكذبون الضالون . فضمت هذه السورة إليهم نوعا آخر ، كان الناس فى الدنيا يحسبونهم مؤمنين ، لأنهم كانوا يظهرون الإيمان وأعماله ، وهم فى الباطن مكذبون . أولئك هم المنافقون (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم

نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير) فما هنا متمم لما هناك وموضح له ، والله تعالى أعلم .

مناسبة أخرى : ختمت السورة السابقة بالأمر بتسبيح الله (فسبح باسم ربك العظيم) وفتحت هذه بالخبر عن تسبيح المخلوقات لله تعالى (سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) وهذه الآية كالعلة للأمر السابق . أى سبح ربك ، لأن المخلوقات سبحته ، فلا تشذ عنها .

وهى مناسبة ظاهرة ، والله تعالى أعلم .

وقال بعض العلماء : افتتاح سورة الحديد بالتسبيح ، مناسب لختام سورة الواقعة بالأمر به[1] .

---

(١) « تنبيه » فتحت السورة بالثناء على الله تعالى ، حسبما مر . وختمت به أيضا (وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وهو تناسب بين مطلعها ومقطعها .

٥٨ — سورة المجادلة (١)

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر فى السورة السابقة وعيد المنافقين بدخول النار ، لأنهم فتنوا أنفسهم بإبطان الكفر ، وتربصوا بالنبي عليه الصلاة والسلام وبالمؤمنين الدوائر (ينادونهم ألم نكن معكم؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى) الآية . فذكر هنا نوعا آخر من الكفر ، أوجب لهم الخلود فى النار أيضا ، وهو موالاتهم لليهود (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود . كان المنافقون يوالونهم ويبلغونهم أسرار

---

(١) قد يقع السؤال عن المناسبة التى تربط بين مفتتح السورة — وهو يتحدث عن الظهار — وبين بقية آياتها التى تتكلم على اليهود والمنافقين . والجواب أن الله تعالى لما ذكر حكم الظهار — وكان يخالف حكمه عند العرب فى جاهليتهم — ذيله بقوله (ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله) بقبول تلك الأحكام ، من الإعتاق والصيام والإطعام ، لأن من لم يقبل حكم الله لايكون مؤمنا (وتلك) الأحكام المذكورة (حدود الله) لايجوز تعديها . ثم توعد الذين لايقبلونها رجوعا إلى حكم الجاهلية بقوله (وللكافرين عذاب أليم) فكان توعد الكافرين مناسبة للتخلص إلى التحدث عن اليهود والمنافقين ، لأن الكفر يربط بينهم ، ومحادة الله ورسوله تجمعهم .

المسلمين (ما هم منكم) يامعشر المسلمين (ولا منهم) من اليهود ، هذا وصف المنافقين ، كما وصفهم فى آية أخرى (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) (ويحلفون على الكذب) حيث يحلفون أنهم مسلمون (وهم يعلمون) أنهم كاذبون فى دعوى الإسلام (أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون) الآيات وهذه مناسبة ظاهرة .

مناسبة أخرى : وجه الله تعالى الخطاب فى السورة السابقة، لأهل الكتاب. يأمرهم بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم(ياأيها الذين آمنوا) بموسى وعيسى (اتقوا الله وآمنوا برسوله) محمد (يؤتكم كفلين من رحمته) لإيمانكم به وبنبيكم ، وتصديقكم بكتابه وبكتابكم (ويجعل لكم نوراً تمشون به) يوم القيامة ، كما جعله للمؤمنين من هذه الأمة ، كما مر فى الآية الثانية عشرة (ويغفر لكم والله غفور رحيم) فذكر هنا ما كان يقصد إليه اليهود من إيذاء النبي والمؤمنين . وهو ضد ماأمروا به من الإيمان به (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول) الذى أمرناهم بالإيمان به (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) حيث يقولون : السام عليك ، والسام الموت . (ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) له إن كان نبيا ثم توعدهم بقوله (حسبهم جهنم يصلونها

فبئس المصير) تشير الآية إلى أن إيمانهم غير متوقع ، لأنهم أعرق في الكفر ، وأشد في الحقد ، وأكثر سعياً في الايذاء ، وهي مناسبة ظاهرة ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : ذكر في فاتحة السورة وعيد اليهود ومن يمالئهم (إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين) وذكر في خاتمتها وعيدهم أيضا (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) . فتناسب مطلعها ومقطعها .

٥٩ — سورة الحشر

ذكر الله تعالى في السورة السابقة موالاة المنافقين لليهود (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) فذكر هنا أنه سلط رسوله والمؤمنين على اليهود فأجلوهم ، وإن موالاة المنافقين لهم لم تنفعهم (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب) هم اليهود بنى النضير (من ديارهم) بالمدينة إلى أريحا وأذرعات بالشام (لأول الحشر) عند أول حشرهم إلى الشام ، وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام أيضا (ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث

لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار) الآيات . (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم. ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون) الآيات . وهى مناسبة ظاهرة ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : فتحت السورة بقوله تعالى (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) وختمت بقوله تعالى (يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم فتناسب مطلعها ومقطعها .

٦٠ ـ سورة الممتحنة

لما ذكر الله تعالى فى السورة السابقة خذلان اليهود والمنافقين ، وكان للمؤمنين فيهم قرابة وصداقة ومعاملة ، يوادونهم لأجلها ، ويصانعونهم لمراعاتها . وربما أدت الموادة والمصانعة إلى إفشاء بعض أسرار المؤمنين . نهى فى هذه السورة عن موالاة الكفار عموما ، لأنهم أعداؤه وأعداء المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ..

لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) فهذه مناسبة واضحة . والله تعالى أعلم .

تنبيه : فتحت السورة بالنهى عن موالاة الكفار كما مر آنفا ، وختمت بالنهى عن موالاتهم أيضا (ياأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٦١ — سورة الصف

ختم الله تعالى السورة السابقة ، كما بدأها بالنهى عن موالاة الكفار ، وهو من المحسنات البديعية ، يسميه أهل البلاغة: « رد العجز على الصدر » فناسب أن يحض هنا على قتالهم لنصرة دينه ، وإعلاء كلمته . ويعاتب المؤمنين على تباطئهم عن القيام بهذا العمل الجليل الذى أخبر أنه تجارة رابحة عند الله تعالى ، تنجى من عذابه ، وتورث مغفرته ورضوانه (ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . . يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم . إن كنتم تعلمون يغفر

لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم) .

تنبيه : ذكر فى فاتحة السورة حديث موسى لقومه (وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) وختمت بحديث عيسى لقومه (ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله) فتناسب مطلعها ومقطعها . لأن موسى وعيسى رسولان إلى بنى إسرائيل ، وثانيهما تابع لشريعة أولهما .

٦٢ — سورة الجمعة

ذكر الله تعالى فى السورة السابقة رسالة موسى وعيسى عليهما السلام إلى بنى إسرائيل . فناسب أن يذكر فى هذه السورة رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم الأميون . وبذلك ضمت السورتان ذكر الرسالات الثلاث التى هى كبرى الرسالات فى العالم .

وأيضا فإن الله تعالى حكى فى السورة السابقة عن عيسى أنه بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم (وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى

من بعدى اسمه أحمد) فذم هنا بنى إسرائيل الذين حرفوا صفة النبى عليه الصلاة والسلام وجحدوها (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) الآية . وهذا ذم بليغ لهم حيث لم ينفذوا تلك البشارة . وإنما اقتصر على ذم اليهود ، لأنهم أسبق إلى التحريف، والنصارى مقلدون لهم فيه ولأن التوراة كانت مكتوبة ، بخلاف الانجيل ، فإنه لم يكتب .

تنبيهات :

الأول : أخبر كل من موسى وعيسى بأنه رسول الله إلى قومه ، أما نبينا ، فإن الله تعالى تولى الإخبار عنه بذلك (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وفى هذا تشريف كبير له .

الثانى : لم يقتصر الله تعالى على الإخبار بإرساله النبى إلى الأميين، ولكن جعل رسالته عامة إلى غيرهم أيضا حيث قال (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) .

الثالث : فتحت السورة بالحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم كما مر ، وختمت بالحديث إليه (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائما) الآية ، فتناسب المطلع والمقطع .

٦٣ — سورة المنافقون

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر في السورة السابقة رسالة النبي عليه الصلاة والسلام إلى العرب وغيرهم، وذم اليهود الذين جحدوا رسالته ، وحرفوا صفته. فكشف هنا كذب المنافقين الذين يداخلون المؤمنين ، ويدعون الإيمان ، وهم يبطنون الكفر الصريح (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) الآيات . وهي مناسبة ظاهرة ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : فتحت السورة بكشف كذب المنافقين في دعوى الإيمان، وهو مما تسكنه القلوب ، لا يعلمه إلا الله تعالى . وختمت بقوله تعالى (والله خبير بما تعملون) لإفادة أن علمه محيط بجميع الأعمال ظاهرها وخفيها . وأنه كما علم كذب المنافقين ، يعلم من أخلص في عمله من المؤمنين ، ومن أشبه منهم المنافقين بعدم إخلاصه في عمله . فتناسب فيها المطلع والمقطع .

٦٤ — سورة التغابن

حذر الله تعالى في السورة السابقة من المنافقين ، بعد أن أخبر بعداوتهم للمؤمنين (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا

تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) فأخبر — هنا — أن بعض أزواج المؤمنين وبعض أولادهم أعداء لهم ، يثبطونهم عن فعل الخير ، كما يثبطهم المنافقون ، وحذر منهم (ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) الآية . فالمناسبة بين السورتين هي التحذير من عدوين متداخلين ، قد تخفى عداوتهما ، أو يتساهل في الاحتراس منهما ، فيعظم الضرر ، وتقع الكارثة بالمؤمنين من حيث لا يشعرون ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : فتحت السورة بالثناء على الله تعالى (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) الآيات ، وختمت به (والله شكور حليم عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) فتناسب فيها المطلع والمقطع .

٦٥ — سورة الطلاق

قال الله تعالى في السورة السابقة (فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا (١) خيراً لأنفسكم) فكان الأمر بالتقوى والسمع والطاعة

---

(١) الأمر هنا بالإنفاق المطلق تمهيد للأمر بانفاق الرجل على أهله في قوله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) وهذه مناسبة أخرى ، تضم إلى ما في الأصل .

تمهيدا لتلقى ما بين هنا من أحكام الطلاق والعدة والنفقة والإرضاع ، ولأهمية هذه الأحكام ، سميت حدود الله وتخللها الأمر بالتقوى عدة مرات . بصريحه تارة ، وبالترغيب المفيد له أخرى ، مع الإخبار بأن من تعدى حدود الله وتجاوزها ، فقد ظلم نفسه . وتلك مناسبة ظاهرة ، والله تعالى أعلم .

٦٦ — سورة التحريم

ذكر الله تعالى فى السورة السابقة أحكام الطلاق ومايتبعه ، فذكر هنا حكم تحريم الرجل وسريته على نفسه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم حرم مارية ، إرضاء لزوجه حفصة (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم) وهى مناسبة ظاهرة . والله تعالى أعلم .

مناسبة أخرى : فتحت السورة السابقة بقوله (يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) الآية . وفتحت هذه بالآية السابقة ، وهى مناسبة بين فاتحتيهما .

٦٧ — سورة الملك

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى بين فى السورة السابقة أن القرابة من الرسول لا تغنى القريب ، ولا تمنعه من دخول النار إذا استوجبها

بكفره (ضرب الله مثلا للذين كفروا إمرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاها فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) . فبين هنا الكفر الذى يوجب دخول النار ، وهو تكذيب الرسول ، (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير) الآيات . ويؤخذ منها أن خيانة أمراة نوح وامرأة لوط هى تكذيبهما لزوجيهما ، لاشىء آخر . وقد بنيت ذلك بدلائله فى « خواطر دينية » .

مناسبة أخرى : ختمت السورة السابقة بقوله تعالى : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وفتحت هذه السورة بالثناء على الله تعالى بإثبات كماله ، وعموم قدرته . رداً لما يدعيه النصارى فى مريم من تجسد الله بها ، وبياناً لأن حملها بنفخ جبريل فى فرجها ، أثر من آثار قدرته (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) فعبارة (بيده الملك) تفيد استحالة اتصال الله ببعض مملوكاته بتجسد أو حلول أو اتحاد . وصفة (الذى خلق الموت والحياة) تؤكد تلك الاستحالة .

لأنه إذا كان خالق الموت والحياة اللذين لا يخلو منهما مخلوق، فكيف يتصل بمن هو عرضة للموت في كل لحظة ؟ !هذا مما ترده العقول وتأباه . وهذه مناسبة واضحة . والحمد لله .

تنبيه : أخرج الحاكم باسناد صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وددت أنها في قلب كل مؤمن » يعني تبارك الذي بيده الملك . وفي السنن عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال « إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك » حسنه الترمذي ، وصححه ابن حبان والحاكم . وفي سنن النسائي عن ابن مسعود مرفوعا « من قرأ تبارك الذي بيده الملك كل ليلة منعه الله عز وجل بها من عذاب القبر وكنا في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام نسميها المانعة ، وإنها في كتاب الله سورة ،من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب ،

وروى الترمذي والبيهقي باسناد ضعيف عن ابن عباس قال : « ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فاذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر » ولهذا يقرأها أهل المغرب على الموتى ، كما يقرأون سورة يس .

٦٨ — سورة القلم (١)

أشار الله تعالى فى السورة السابقة إلى اتهام الكفار للنبى عليه الصلاة والسلام بالضلال (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين) ومن الضلال الجنون الذى رموه به عليه الصلاة والسلام . لأن المجنون ضال فى جنونه لا يهتدى لوجه الصواب . فنفى هنا ما رموه به نفياً صريحاً قاطعاً .

(ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) وهى مناسبة ظاهرة . والله تعالى أعلم .

---

(١) نزلت هذه السورة بعد سورة العلق . فهى ثانى سورة نزلت من القرآن . وكان إتجاه المشركين إذ ذاك . إلى رمى النبى صلى الله عليه وسلم بالجنون، لأنهم اعتبروا ما بدىء به من الوحى جنوناً طرأ على عقله . فلهذا جاءت فاتحتها مصرحة بنفى الجنون عنه عليه السلام ، ولم يأت حديث عن القرآن ، لأنه لم يكن نزل منه . ما يدعو إلى الحديث عنه . فهذه — والله أعلم — حكمة عدم ذكر ما يتعلق بالقرآن ، بعد حرف (ن) . على أنه ذكر القلم والكتابة — لأن معنى يسطرون . يكتبون — إشارة إلى القرآن الذى سينزل ويكتب .

مناسبة أخرى : وجه الله تعالى خطابا إلى الكفار فى السورة السابقة إن هو حبس رزقه عنهم ـ بحبس المطر ـ فمن يرزقهم غيره ؟ (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟) فأخبر فى هذه السورة : أنه امتحنهم بالقحط كما امتحن من قبلهم (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم) الآية .

تنبيه : فتحت السورة بقوله تعالى :(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وختمت بقوله سبحانه (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون) .

فتناسب مطلعها ومقطعها .

٦٩ — سورة الحاقة

توعد الله تعالى فى السورة السابقة المكذبين بالقرآن (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملى لهم إن كيدى متين) فختم هذه السورة برد دعاويهم فى القرآن ، وبيان أنه من عنده (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين)الآيات . إلى آخر السورة .وهذه مناسبة واضحة، والله تعالى أعلم .

٧٠ — سورة المعارج

ختمت السورة السابقة برد دعاوى المكذبين بالقرآن فافتتحت هذه بالإخبار عن العذاب الواقع بهم (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع. من الله ذى المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه) ومعنى سأل سائل : دعا داع . لأن سبب نزولها — كما قال ابن عباس — : أن النضر بن الحارث قال : اللهم إن كان هذا القرآن الذى يقرأه محمد هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم[1].

وهذه مناسبة واضحة ، والله تعالى أعلم .

مناسبة أخرى: فتحت السورة السابقة بذكر القيامة وتهويل شأنها (الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة) فذكر هنا مقدار يومها ، ووصف ما يحصل فيه ، (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلا . إنهم يرونه بعيداً . ونراه قريباً . يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) الآيات .

تنبيهان

الأول : قوله تعالى (فى يوم) متعلق بقوله (واقع) والتقدير سأل

(١) آية ٣٢ من سورة الأنفال .

سائل بعذاب واقع للكافرين فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[١] ، وهو يوم القيامة كما مر . وهذا التقدير هو الصحيح ؛ لما رواه أحمد وغيره [٢] عن أبى سعيد الخدرى قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ما أطول هذا اليوم ! قال « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى فيها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » الحديث [٣] .

---

(١) فالوقف على كلمة (إليه) لازم .

(٢) كأبى يعلى من طريق دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد ، صححه ابن حبان ، وهو والترمذى والحاكم يصححون رواية هذا الطريق .

(٣) بقيته : قيل : يارسول الله فالابل ؟ قال « ولا من صاحب إبل لا يؤدى منها حقها — ومن حقها حلبها يوم ورودها — إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ، أوفر ما كانت ، لا يفقد منها فصيلا واحدا ، =

وأما تقديره متعلقا بتعرج ـ ويكون التقدير : تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ـ فليس بصحيح . لأن عروج الملائكة والروح والأعمال يكون فى يوم مقداره ألف سنة ، قال تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وعروج الأمر الشامل للأعمال وللروح وغيرها كناية عن عروج الملائكة المكلفين بذلك . أما قوله تعالى (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) فالمراد به يوم من أيام عذاب الكفار فى النار . وذلك أنهم استعجلوا العذاب الذى توعدوا به ، فقال تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده بتعذيبهم (وإن يوما عند ربك) حين يعذبون فى النار (كألف سنة مما تعدون فى شدته وطوله . وهذا كما قال فى أهل الجنة (ولهم رزقهم فيها بكرة

= تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولاها ، عاد عليه أخراها . فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد . فيرى سبيله إما إلى الجنه وإما إلى النار . قيل : يارسول الله فالبقر والغنم ؟ قال « ولا من صاحب بقر ولا غنم ، لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة ، بطح لها بقاع قرقر ، أوفر ما كانت ، لا يفقد منها شيئا ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولاها ، رد عليه أخراها . فى يوم كان مقدارة خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد . فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

وعشيا) وماقررناه في هذه الآيات الثلاث هو المؤيد بالدليل من الكتاب والسنة ، فاعتمده ولا تلتفت لما يروى من خلافه عن ابن عباس ، فانه ليس بصحيح عنه .

الثاني : فتحت السورة بذكر يوم القيامة (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) الآية . وختمت به أيضا (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون. يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٧١ — سورة نوح عليه السلام

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر في السورة السابقة حال الكفار مع النبي عليه الصلاة والسلام ، واستهزاءهم بالمؤمنين . وأمر نبيه بأن يتركهم في خوضهم ولعبهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون فيه العذاب. فذكر في هذه السورة مالاقى قوم نوح من الهلاك والعذاب بعده ، حين كذبوا رسولهم (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا. فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) فما حل بهؤلاء من العذاب ، سيحل بأولئك . وهذه مناسبة ظاهرة ، والله تعالى أعلم .

٧٢ — سورة الجن

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر فى السورة السابقة ما أبداه نوح لقومه من الأدلة المتعددة على توحيد الله ، وسعة نعمته ، وقرب مغفرته . ومع ذلك أصروا على الشرك ، وتواصوا به فيما بينهم (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن وداً ولاسواعاً ولايغوث ويعوق ونسراً) فذكر فى هذه السورة أن الجن حين سمعوا القرآن ، آمنوا به ، وأقلعوا عن الشرك (قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنه تعالى جد ربنا مااتخذ صاحبة ولاولدا) الآيات . وهذا تعريض بأن الجن أحسن حالا من كفار الإنس ، وأسد رأيا ، وأبعد عن الجدل منهم ، وأسعد بقبول الحق . وأكد هذا التعريض بذكر حرصهم على استماع القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) .

تنبيه : فتحت السورة بذكر الوحى كما مر ، وختمت به أيضا (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم)

التى أوحاها إليهم لتبليغها (وأحاط بمالديهم وأحصى كل شى عدداً) فتناسب المطلع والمقطع .

٧٣ — سورة المزمل

تقدم فى السورة السابقة مدح القرآن ، وتسميته هدى (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به) فأمر النبى عليه الصلاة والسلام فى هذه السورة بالقيام به وبترتيله ، وبالاستعداد لما سينزل عليه منه (ياأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) مهيباً ، وتلك مناسبة ظاهرة .

مناسبة أخرى : هى الإشارة إلى تعدد حكمه وفوائده ، فذكر من حكمه هناك الرشد والهداية ، وذكرهنا فيها القيام به وتلاوته على وجه التثبت والتأنى . والله تعالى أعلم .

تنبيه : فتحت السورة بالكلام على قيام الليل وقراءة القرآن كما مر . وختمت به (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل و نصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ماتيسر من القرآن) الآية . وهذا تناسب بين مطلعها ومقطعها .

٧٤ — سورة المدثر

هذه السورة نزلت بعد سابقتها جاء النبي صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه (اقرأ باسم ربك) وبوادره ترجف من شدة الوحي وفجأته ، فقال لخديجة رضي الله عنها «زملوني زملوني» فزملته . فنزل (يا أيها المزمل) ثم فتر الوحي مدة ، ثم فاجأه مرة أخرى . فرجع يرتجف ، وقال لأهله « دثروني دثروني » فدثروه . فنزل (يا أيها المدثر) فتناسبت السورتان في أن كل واحدة منهما سجلت حالة من حالتيه عليه الصلاة والسلام .

مناسبة ثانية أمر في السورة السابقة بقيام الليل ، استعداداً لما يلقى إليه ، وترقبا لما يفاض عليه . فألقى إليه في هذه السورة الأمر بالانذار وما معه (قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر) وأفيض عليه وصف الرسالة ، بعد أن كان نبيا . ومن هنا قال بعض الصوفية في (يا أيها المزمل) إنه ترمل بالنبوة ، وفي (يا أيها المدثر) إنه تدثر بالرسالة . وهي إشارة لطيفة

مناسبة ثالثة أمر في السورة السابقة بترتيل القرآن لتدبره واستخراج جواهره ولآلئه . فذكر هنا وعيد المكذب به (إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر) الآيات .

مناسبة رابعة : توعد الله هناك المكذبين هول يوم القيامة (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا . السماء منفطر به كان وعده مفعولا) فذكر هنا ما يحصل لهم من العذاب فى ذلك اليوم ، واعترافهم بكفرهم (كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون . عن المجرمين ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك تطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين) .

٧٥ — سورة القيامة

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر فى السورة السابقة اعتراف الكفار وهم فى سقر بأن من أسباب دخولهم لها تكذيبهم بيوم الدين وهو يوم القيامة . فافتتح هذه السورة بالقسم به (لاأقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة) ثم ذكر قدرته على البعث والدليل عليها (أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوى بنانه ... أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) .

تنبيهـــات

الأول : أخبرنى المرحوم متولى العوضى أن مستشرقا إنجليزيا عنده إنصاف ـ على ندرة المنصف فى المستشرقين ـ كان يكلمه على ما فى القرآن من إشارات إلى حقائق علمية ، فذكر له على سبيل المثال أن الغربيين اكتشفوا البصمة من البحث فى آية (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) أصابعه .

حيث لفت نظرهم تخصيص الأصابع بالذكر فى الاستدلال على إحياء الموتى للبعث ، فبحثوا حتى وصلوا إلى أن الخطوط والتعاريج التى فى الأصابع لاتتشابه رغم كثرة الناس . وأنه إذا استعرضت أصابع ألف ألف شخص ، فقد يوجد تشابه بين شخصين منهم ، وإذا أحرق جلد الأصبع يعود بعد التئامه بخطوطه وتعاريجه كما كانت . وبهذا صارت البصمة تدل على صاحبها دلالة قاطعة ، فسبحان الخلاق العليم .

الثانى : قوله تعالى (لاتحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه) .

ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس ـ فى سبب نزول هذه الآيات الأربع ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ مع جبريل عليه السلام القرآن حين ينزل عليه به ، مخافة النسيان . وقد اختلف العلماء فى توجيه

المناسبة بين هذه الآيات ، وبقية آيات السورة التى تتكلم عن البعث وما بعده .

قال الزمخشرى : فإن قلت : كيف اتصل قوله (لا تحرك به لسانك) إلى آخره بذكر القيامة ؟ قلت : إتصاله به من جهة هذا التخلص إلى التوبيخ بحب العاجلة وترك الإهتمام بالآخرة (١) .

وقيل : لما نزل أول السورة إلى قوله تعالى (ولو ألقى معاذيره) صادف أنه صلى الله عليه وسلم فى تلك الحالة ، بادر إلى حفظ ما نزل عليه . فقيل له (لا تحرك به لسانك) الآيات (٢) ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدىء به . قال الفخر الرازى : ونحوه مالو ألقى المدرس على الطالب مثلا مسألة ، فتشاغل الطالب بشىء عرض له . فقال له : ألق بالك وتفهم

---

(١) لكن أين المناسبة بينها وبين ماقبلها . فالظاهر أنها من الاقتضاب . بل ذكر أبو العلاء محمد بن غانم : أن القرآن لم يقع فيه شىء من التخلص ، لما فيه من التكلف . وقال : أن القرآن إنما ورد على الإقتضاب الذى هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم . وغلط فى ذلك ، بل القرآن فيه تخلص لا تكلف فيه ، ومنه ما مر بيانه فى سورة المجادلة ، والتخلص طريقة العرب أيضا ، إلا إن الغالب فى استعمال العرب الأولين ، ومن يليهم من المخضرمين ، طريقة الاقتضاب .

(٢) ويؤيده ما صح فى سبب نزولها .

ماأقول ، ثم كمل المسألة . فمن لايعرف السبب يقول : ليس هذا الكلام مناسبا للمسألة ، بخلاف من عرف ذلك .

وقيل لما تقدم ذكر النفس فى أول السورة ، عدل إلى ذكر نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، كأنه قيل هذا شأن النفوس ، وأنت يامحمد نفسك أشرف النفوس ، فلتأخذ بأكمل الأحوال من التأنى والتثبت . وقيل غير ذلك .

الثالث : فتحت السورة بذكر القدرة على البعث (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) وختمت به .

(أليس ذلك بقادرعلى أن يحيي الموتى) فتناسب مطلها ومقطعها .

٧٦ ـ سورة الإنسان

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى ذكر فى السورة السابقة أن الناس ينقسمون فى الآخرة قسمين (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة) فذكر هنا ثواب أهل النضرة بتفصيل (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) الآيات .

وأيضا تتفق هذه السورة مع تلك فى الكلام على البعث ومايليه ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : ذكر فى فاتحة السورة وعيد الكفار (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) وختمت به (والظالمين أعد لهم عذابا أليما) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٧٧ — سورة المرسلات

هذه السورة تناسب سابقتها أيضا فى الكلام على البعث وما بعده من نعيم أو عذاب ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : قال أبو بكر بن العربى : نزلت سورة المرسلات فى الغار تحت الأرض كما فى الصحيح عن ابن مسعود . قلت :وأخرج الإسماعيلى فى صحيحه — وهو مستخرجه على البخارى — عن ابن مسعود أيضا قال : نزلت سورة المرسلات ليلة عرفة بغار منى . وفى المستدرك عنه أيضا قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غار ، فنزلت عليه والمرسلات . فأخذتها من فيه وإن فاه رطب بها . قلت : هذه السورة نزلت جملة واحدة .

٧٨ — سورة النبأ

هى كسابقتها تتعلق بالبعث ومابعده،وهكذا أغلب السور المكية ، تتعلق بهذا الموضوع . لأنها نزلت فى قوم ينكرونه . فرد الله تعالى عليهم بعدة سور ، نوع لهم فيها الأدلة ، وعدد الأساليب ، وأوضح

الحجة ، وسد عليهم باب الإنكار ، وأبطل شبههم فيه . بحيث لم يبق لهم من حجة على إنكار اليوم الآخر وما فيه ، إلا العناد المجرد. وهو أقبح الكفر ، وصاحبه لا يرجى له علاج ، والله تعالى أعلم .

٧٩ ـ سورة النازعات

هى أيضا تناسب سابقتها فى الموضوع لما قدمنا ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : فتحت السورة بالحديث عن يوم القيامة (يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة) الآية . وختمت به (يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) فتناسب مطلعها ومقطعها

٨٠ سورة عبس

تناسب سابقتها فى موضوع البعث وما بعده أيضا

٨١ ـ سورة التكوير

تناسب سابقتها فى الموضوع نفسه . والله أعلم .

٨٢ — سورة الانفطار

تتناسب مع سابقتها فى وصف يوم القيامة وصفا تنخلع له النفوس، وتلاحقها صوره ومشاهده فى صورة إنذار بالغ . قال النبى صلى الله عليه وسلم: « من سره أن ينظر إلىّ يوم القيامة كأنه رأى العين فليقرأ (إذا الشمس كورت . وإذا السماء انفطرت . وإذا السماء انشقت) » . رواه الترمذى من حديث ابن عمر باسناد جيد .

تنبيه : فتحت السورة بوصف يوم القيامة (إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت) وختمت به (وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) فتناسب مطلعها ومقطعها

٨٣ — سورة المطففين

تناسب سابقتيها فى الموضوع ، لأنها توعد المطففين بالويل فى يوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين . وتصف حالتى الفجار والأبرار ، فى ذلك اليوم .

٨٤ — سورة الانشقاق

تصف يوم القيامة كأنه رأى العين ، كما مر فى الحديث فهى تناسب سابقتها مناسبة موضوعية .

تنبيه : أفادت هذه السورة أن الكافر يعطى كتابه يوم القيامة وراء ظهره ، وهى فائدة زائدة على ما أفاده غيرها من السور ، من إعطائه كتابه بشماله . وعلى هذا فالكافر فى الآخرة يعطى كتابه بشماله ، من وراء ظهره ، والله تعالى أعلم .

٨٥ — سورة البروج

تناسب سابقتها فى ذكر يوم القيامة (والسماء ذات البروج واليوم الموعود) يوم القيامة .

وفى ذكر عذاب الكفار ونعيم المؤمنين (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) .

٨٦ — سورة الطارق

تناسب سابقتها فى ذكر يوم البعث (إنه على رجعه لقادر يوم

تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر) وفى وصف القرآن . هناك (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) .

وهنا (إنه لقول فصل . وما هو بالهزل) .

٨٧ — سورة الأعلى

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى رد على المشركين فى السورة السابقة قولهم : لا يرجع الإنسان بعد موته (إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر) وقولهم فى القرآن : سحر وكهانة (والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . إنه لقول فصل . وما هو بالهزل) وقول الكفار المذكور يلزم منه نسبة النقص إلى الله تعالى بتكذيبه فى البعث ، ووصف كلامه بالكهانة والسحر . فافتتح هذه السورة بالأمر بتسبيحه أى تنزيهه سبحانه عن كل نقص ، مثبتا علوه وقدرته التامة ، وحكمته فى أفعاله (سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى) الآيات .

وأيضا فقد قال فى السورة السابقة ـ يأمر الإنسان بالنظر فى أصل خلقه ـ (فلينظر الإنسان مم خُلق خُلِقَ . من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب)

فأشار هنا بصفتى (الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى) إلى أنه تعالى خلق من الماء الدافق خلقاً سوياً ، وقدر له ما يصلحه ، فهداه

إليه ، وعرفه وجه الإنتفاع به . وحذف مفعول خلق لإرادة التعميم في الإنسان والحيوان . ومن أراد أن يعرف ما تشير إليه هذه الآية من حقائق وأسرار ، فليقرأ علم الحيوان وعلم الأحياء(١) .

٨٨ ـ سورة الغاشية

مناسبتها لماقبلها : أن الله تعالى أخبر في السورة السابقة أن الناس يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة (بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى) .

فأراد في هذه السورة أن يستنهض هممهم إلى طلب الآخرة ، ويحذرهم هول يوم القيامة (هل أتاك حديث الغاشية) الآيات .

تنبيه : فتحت السورة بيوم القيامة كما مر . وختمت به (إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم) فتناسب مطلعها ومقطعها .

٨٩ ـ سورة الفجر

مناسبتها لماقبلها : أن الله تعالى أمر نبيه في السورة السابقة بتذكير الكفار ، وأوعدهم بالعذاب (فذكر إنما أنت مذكر . لست

(١) علم الأحياء يبحث عن الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات من حيث نموها وبناؤها وتغذيتها وتنفسها ونشاطها وحركاتها وتكاثرها وتوالدها .

عليهم بمسيطر. إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر) فذكر هنا أنه أهلك كفارا كانوا أشد من كفار مكة وأقوى منهم (ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التى لم يخلق مثلها فى البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذى الأوتاد. الذين طغوا فى البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد) فما أصاب هؤلاء من الهلاك والعذاب، ليس ببعيد من أولئك، والله تعالى أعلم.

٩٠ ـ سورة البلد

ذكر الله تعالى فى السورة السابقة اهتمام الإنسان بالدنيا، وحبه للمال، وإهماله للطاعة، ولما يفيده فى الآخرة (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن. كلا) ردع للانسان عن هذا القول. ثم وجه الخطاب للكفار الذين كانوا يرون بسط الرزق إكراما وتقتيره إهانة (بل) حين يكرمكم الله بالمال (لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلا لما. وتحبون المال حبا جما) فأعاد الكلام هنا على الإنسان، وأخبر أنه خلق فى مكابدة المشاق والشدائد، وأنه يتباهى بكثرة ما أنفقه فى شهواته ولم ينفقه فى طاعة الله ورضاه (لقد خلقنا الإنسان فى كبد. أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول

أهلكت مالا لبداً . أيحسب أن لم يره أحد. ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة) فسجلت السورتان على الإنسان حبه للدنيا وتركه للآخرة ، وبينت هذه السورة أن الإنسان المتحدث عنه فيهما هو الكافر (ثم كان من الذين آمنوا) الآية . وهذه مناسبة واضحة .

٩١ ـ سورة الشمس

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى بين فى السورة السابقة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، فذكر هنا أصحاب الميمنة بوصف الفلاح ، وأصحاب المشأمة بوصف الخيبة (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) فيستفاد مما هنالك مع ماهنا أن أصحاب الميمنة مفلحون أى فائزون ، لدخولهم الجنة . وأصحاب المشأمة خائبون أى خاسرون . لدخولهم النار ، والله تعالى أعلم .

٩٢ ـ سورة الليل

تناسب هذه السورة سابقتها فى تقسيم الناس إلى قسمين : مؤمن وهو المفلح ـ ميسر للجنة ، وهى اليسرى ، وكافر ـ وهو الخائب ـ ميسر للنار ، وهى العسرى .

(والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى. وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى) بالملة الحسنى وهى ملة الاسلام (فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) .

٩٣ ـ سورة الضحى

ذكر الله فى السورة السابقة أن المصدق بملة الإسلام ميسر للجنة ، وختمها بذكر ما أعد من الثواب لأول رجل أسلم من هذه الأمة وهو أبو بكر الصديق رضى الله عنه (وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى) فناسب أن تكون هذه السورة فى فضل النبى الأكرم ، والرسول الأعظم . إيذانا بأن شرف التابع هناك ، لشرف المتبوع هنا ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : أول من أسلم على الإطلاق خديجة رضى الله عنها ، وتلاها على عليه السلام ، لأنه كان يتربى فى بيت النبى عليه الصلاة والسلام ... وكان عمره يوم أسلم ثمان سنين تقريبا ، ولم يسجد لصنم قط، ولذا قيل عنه : كرم الله وجهه .

٩٤ ـ سورة الشرح

نفى الله تعالى فى السورة السابقة ، ترك نبيه وقلاءه . رداً لدعوى بعض المشركين ذلك . وامتن عليه ببعض نعم أنعم عليه بها قبل النبوة ثم قال له :(وأما بنعمة ربك فحدث) فذكر هنا نعما منحه إياها فى بدء النبوة وبعدها، وهى شرح صدره ، ووضع وزره ،ورفع ذكره ، وتيسير العسير له . فالسورتان متناسبتان فى الموضوع ، متقاسمتان بيان فضل النبي عليه الصلاة والسلام .

موازنة

بين نبينا وبين موسى وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام . موسى طلب من الله أن يشرح صدره ، وييسر أمره (قال رب اشرح لى صدرى ويسرلى أمرى) .

وإبراهيم طلب أن يجعل له ذكرا فى الآخرين ، أى فى هذه الأمة (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) .

ونبينا أعطاه الله ذلك من غير طلب (ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك. الذى أنقض ظهرك.ورفعنا لك ذكرك. فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسرا) وهذا مما يدل على رفعة نبينا عليه الصلاة السلام .

٩٥ ـــ سورة التين

امتن الله تعالى على نبيه فى السورة السابقة بخصال شرفه بها، فناسب أن يشرف بلده الذى نشأ فيه، فأقسم به تشريفا له (والتين والزيتون . وطور سنين . وهذا البلد الأمين) مكة .

٩٦ ـــ سورة العلق

مناسبة هذه السورة لما قبلها : أن الله تعالى أنكر فى السورة السابقة على الكفار تكذيبهم بالبعث(فما يكذبك بعد بالدين)والخطاب للمكذب بالبعث، والاستفهام إنكارى ، فصرح هنا بالبعث ، وأكد وقوعه (إن إلى ربك الرجعى) .

تنبيه : قال بعض العلماء : سورة (اقرأ) مشتملة على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال ، لكونها أول ما نزل . فإن فيها الأمر بالقراءة ، والبداءة فيها باسم الله وفيه الإشارة إلى علم الأحكام (١) ، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب ، وإثبات ذاته ، وصفة من

---

(١) لأن معنى (اقرأ باسم ربك) : إقرأ مبتدئا باسم ربك : أى قل: بسم الله . وهذا حكم شرعى ، يشير إلى أحكام تأتى بعده . وقوله: (ربك) إثبات لذات الله واتصافه بالربوبية، وهو إشارة إلى التوحيد.(والأكرم). صفة ذاتية ، (والذى خلق): صفة فعل، وذلك إشارة إلى أصول الدين .

صفات ذاته ، وصفة فعل . وفى هذه الإشارة إلى أصول الدين . وفيها مايتعلق بالأخبار من قوله (علم الإنسان مالم يعلم) ولهذا قيل : إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن . لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده ، بعبارة وجيزة فى أوله .

٩٧ — سورة القدر

افتتحت السورة السابقة بأمر النبي عليه الصلاة والسلام بالقراءة. (اقرأ باسم ربك الذى خلق) فناسب أن يذكر فى هذه السورة إنزال القرآن المأمور بقراءته (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) .

وقال أبو جعفر بن الزبير فى البرهان : حكى الخطابى أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن . وضعوا سورة القدر عقب العلق ، استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية فى قوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) الإشارة إلى قوله (اقرأ). قال القاضى أبو بكر بن العربى : وهذا بديع جداً

٩٨ — سورة البينة

مناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى أخبر فى السورة السابقة بإنزال القرآن ، فذكر هنا ما كان عليه الفريقان من الكفار : مشركين وكتابيين . كانوا يقولون : لانزال على ديننا حتى يأتينا الرسول الموعود

فى آخر الزمان . يتلو صحفا مطهرة ، هى القرآن (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة) ثم بعد مجيئه وتلاوته للقرآن الذى أنزل عليه ، تفرق فيه أهل الكتاب – وتبعهم المشركون – فكفر معظمهم حسداوبغيا . وآمن من سبقت له السعادة (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) وهذه مناسبة ظاهرة ، والله تعالى أعلم .

٩٩ – سورة الزلزلة

ذكر فى السورة السابقة جزاء الكفار والمؤمنين (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) الآية . فناسب أن يذكر هنا يوم القيامة ، ومايسبقه من شدة . لأن بعده يصير المؤمنون إلى الجنة ، والكفار إلى النار (إذا زلزلت الأرض زلزالها) الآيات إلى آخر السورة .

تنبيه : ورد فى حديث ضعفه الترمذى عن ابن عباس مرفوعا «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن ، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل ياأيها الكافرون تعدل ربع القرآن» وجاء فى حديث آخر حسنه الترمذى وفيه كلام : أنها – يعنى إذا زلزلت – تعدل ربع القرآن .

قال ناصر الدين بن الميلق المالكي الشاذلي فى توجيه الحديثين : أحكام القرآن تنقسم إلى أحكام الدنيا، وأحكام الآخرة . وهذه السورة تشتمل على أحكام الآخرة كلها إجمالا ، وزادت على القارعة بإخراج الأثقال ، وتحديث الأخبار . وأما تسميتها فى الحديث الآخر ربعا ، فلأن الإيمان بالبعث ربع الإيمان فى الحديث الذى رواه الترمذى « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع — يشهد أن لا إله إلا الله .وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالموت ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر » فاقتضى هذا الحديث أن الإيمان بالبعث الذى قررته هذه السورة ربع الإيمان الكامل الذى دعا إليه القرآن .

١٠٠ ـ سورة العاديات

تناسب سابقتها فى ذكر البعث أيضا .

(أفلا يعلم إذا بعثر مافى القبور وحصل مافى الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير) .

١٠١ ـ سورة القارعة

تناسب سابقتها أيضا فى ذكر يوم القيامة ، مع إفادة تسميته بالقارعة لأنها تقرع النفوس بأهوالها وشدائدها . والله تعالى أعلم .

١٠٢ — سورة التكاثر

مناسبتها لما قبلها : أنه تعالى ذكر فيما من أهوال يوم القيامة ، فذم هنا اللاهين عنها . قاله الصاوى فى حاشية تفسير الجلالين .

تنبيه : روى الحاكم بإسناد فيه مجهول عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم ؟» قالوا : ومن يستطيع ذلك ؟ قال : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر ؟ » .

قال الناصر بن الميلق : إن القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية وكسر ، فإذا تركنا الكسر كان الألف سدس القرآن ، وهذه السورة تشتمل على سدس مقاصد القرآن . فإنها ـ فيما ذكره الغزالى ـ ستة : ثلاث مهمة ، وثلاث متمة ـ وتقدمت فى سورة الفاتحة ـ وأحدها معرفة الآخرة المشتمل عليه السورة ، والتعبير عن هذا المعنى بألف آية أفخم وأجل وأضخم من التعبير بالسدس .

١٠٣ — سورة العصر

مناسبتها لما قبلها : أنه تعالى ذم فى تلك ، اللاهين عن يوم القيامة بالمال والمعاصى واتباع الشهوات فذكر هنا أن اللهو بذلك يعم جنس الإنسان ، وسماه خسرا إلا المؤمنين (والعصر إن الإنسان لفى

خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

١٠٤ — سورة الهمزة

مناسبتها لما قبلها : أنه تعالى لما قال فيما سبق (إن الإنسان لفي خسر) بين هنا حال الخاسرين ومآلهم . قاله الصاوى .

١٠٥ — سورة الفيل

تناسب سابقتها فى بيان مآل بعض الخاسرين ، وهم أصحاب الفيل ، خصوا بالذكر ، لاجترائهم على حرم الله تعالى .

١٠٦ — سورة قريش

إن قلنا : إن (لإيلاف) متعلق بآخر السورة السابقة ، والمعنى : فجعلهم كعصف مأكول ، ليبقى إيلاف قريش رحلتى الشتاء والصيف . فالسورتان مرتبطتان . وقد كان يعدهما أبىّ بن كعب وجعفر الصادق وأبو نهيك سورة واحدة . وإن قلنا : إنه متعلق بالأمر بعده (فليعبدوا) فالمناسبة بينهما فى قوله (وآمنهم من خوف) والمعنى : فليعبدوا الله الذى آمنهم من جيش الفيل ، وقد كانوا خائفين منه ، والله تعالى أعلم .

١٠٧ — سورة الماعون

هذه السورة فيها سبع آيات : ثلاث منها نزلت في وصف كفار مكة . ووجه مناسبتها لما قبلها: أن الله تعالى امتن على قريش بأنه أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ، وأمرهم أن يعبدوه شكراً على ذلك . فذمهم هنا بأنهم يكذبون بالدين ، ويدفعون اليتيم دفعاً عنيفاً ، ولا يبذلون الطعام للمسكين الجائع . وهو ضد ما أمرهم الله ، بل ضد مايقتضيه شكر نعمة الإطعام والأمن . أما الأربع الباقية فانها نزلت في المنافقين الذين يظهرون الصلاة والعباده رياء وسمعة ، وهم في الباطن مثل كفار مكة ، يكذبون بالدين ، ويتحلون بمالا يصح التحلي به .

١٠٨ — سورة الكوثر

ذم الله تعالى في السورة السابقة الكفار على تكذيبهم بالدين ، وبخلهم بإطعام المسكين . فأخبر هنا بكرمه الذى أكرم به نبيه ، وسلاه بذلك عن تكذيب قومه وإيذائهم . وأمره بالصلاة والنحر . أى لإطعام المساكين ، على عكس ماعليه الكفار من البخل وترك عبادة الله تعالى .

وقال بعض العلماء : من لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتى قبلها : لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور : البخل ،

وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة ، فذكر فى مقابلة البخل (إنا أعطيناك الكوثر) أى الخير الكثير . وفى مقابلة ترك الصلاة (فصل) أى دم عليها . وفى مقابلة الرياء (لربك) أى لرضاه ، لا للناس وفى مقابلة منع الماعون (وانحر) وأراد به التصدق بلحم الأضاحى .

قلت : فحاله صلى الله عليه وسلم يباين حالهم غاية المباينة . ولهذا والله أعلم ، أمره فى :

١٠٩ ـ سورة الكافرون

أن يخبرهم بأنه لا صلة بينه وبينهم ، لأنه يعبد الله وحده ، وهم يعبدون غيره . ودينه التوحيد ، ودينهم الشرك .

تنبيه : روى الترمذى والبيهقى وغيرهما من طريق سلمة بن وردان عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه « هل تزوجت ؟ » قال : لا ، والله يارسول الله ، ولا عندى ما أتزوج به . قال : « أليس معك قل هو الله أحد ؟ » قال : بلى . قال : « ثلث القرآن » قال : « أليس معك إذا جاء نصر الله ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : « أليس معك إذا زلزلت الأرض ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن . تزوج تزوج » .

حسنه الترمذى . لكن سلمة ضعيف . قال أبو حاتم : ليس بقوى ، عامة ماعنده عن أنس منكر . وقال ابن معين : ليس حديثه بذاك .. من هنا تكلم مسلم فى هذا الحديث فى كتاب التميز . وسيأتى توجيه كون هذه السورة ربع القرآن بحول الله تعالى .

١١٠ ـ سورة النصر

لما أيأس الله نبيه من الكفار والمنافقين ، وقطع كل صلة بينه وبينهم فيما يتعلق بعبادة الله وتوحيده . بشره هنا بمجىء نصر الله وفتحه ، وبانتشار دينه ، ودخول الناس فيه أفواجا . وهذه مناسبة ظاهرة ، والله تعالى أعلم .

١١١ — سورة تبت

لما بشر الله نبيه فى السورة السابقة بنصره ونشر دينه ، ناسب أن يبشره هنا بهلاك عدوين عنيدين من أشد أعدائه : طالما قاسى من إيذائهما وسبهما . ولهذا أفرد الله هذه السورة للبشارة بهلاكهما وخسرانهما ، إكراما لنبيه ، وانتقاما له من أعدائه ، والله تعالى أعلم .

١١٢ — سورة الإخلاص

كان العرب يجمعون المال ، عدة لنوائب الزمان ، وحوادث الدهر . ويطلبون البنين لمكاثرة الخصوم ، ومحاربة الأعداء ، وذكر

الله فى السورة السابقة ، أن أبالهب حين نزل به الهلاك والخسار ، لم ينفعه ماله ، ولا ما كسب من أولاد ، وقد كان يعتز بهما على عادة قومه وعشيرته . فنزه الله تعالى نفسه هنا عن مشابهة خلقه ، فلا ولد له ولا والد ، ولا يماثله أحد ، سبحانه وتعالى .

وقال بعض العلماء فى المناسبة بين السورتين : التوازن فى اللفظ بين آخر السابقة ، وأول هذه . أى بين مسد ، وأحد . وهذه مناسبة لفظية .

تنبيه : ثبت فى الصحيحين وغيرهما من طرق : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » واختلف فى معنى الحديث وتوجيه كونها ثلث القرآن . فقيل : لأن القرآن يشتمل على شرائع ، وقصص ، وصفات ، وهذه السورة كلها صفات ، فكانت ثلثا بهذا الاعتبار .

وقال الغزالى فى الجواهر : معارف القرآن المهمة ثلاث : معرفة التوحيد ، والصراط المستقيم ، والآخرة ، وهى مشتملة على الأول ، فكانت ثلثا . وقال أيضا – فيما نقله عنه الرازى – : القرآن يشتمل على البراهين القاطعة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وصفاته : إما صفات الحقيقة ، وإما صفات الفعل ، وإما صفات الحكم ، فهذه ثلاثة

أمور . وهذه السورة تشتمل على صفات الحقيقة ، فهى ثلث . وقال الحلويني : المطالب التى فى القرآن ، معظمها الأصول الثلاثة التى بها يصح الاسلام ، ويحصل الإيمان . وهى معرفة الله ، والاعتراف بصدق رسوله ، واعتقاد القيام بين يدى الله تعالى . فإن من عرف أن الله واحد ، وأن الرسول صادق ، وأن الدين واقع ، صار مؤمنا حقا . ومن أنكر شيئا منها كفر قطعا . وهذه السورة تفيد الأصل الأول ، فهى ثلث القرآن من هذا الوجه . وقيل : القرآن قسمان : خبر وإنشاء . والخبر قسمان : خبر عن الخالق ، وخبر عن المخلوق ، فهذه ثلاثة أثلاث ، وهذه السورة أخلصت الخبر عن الخالق ، فهى بهذا الاعتبار ثلث .

وقال ناصر الدين بن الميلق — فى توجيه الحديث وحديث الكافرون مع أن كلا منهما يسمى الإخلاص — : إن سورة الإخلاص اشتملت من صفات الله تعالى على مالم تشتمل عليه الكافرون ، وأيضا فالتوحيد إثبات إلهية المعبود وتقديسه . ونفى إلهية ماسواه . وقد صرحت الإخلاص بالإثبات والتقديس ، ولوحت إلى نفى عبادة غيره . والكافرون صرحت بالنفى ، ولوحت بالإثبات والتقديس . فكان بين الرتبتين من التصريحين والتلويحين ، مابين الثلث والربع .

وقيل : تعدل ثلث القرآن فى الثواب ، وهذا هو المشهور عند الناس ، لكن ضعفه أبو الوفاء بن عقيل الحنبلى ، وقال : لايجوز أن

يكون المعنى : أن من قرأها فله أجر ثلث القرآن ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات » .

وقال ابن عبدالبر في التمهيد : السكوت في هذه المسألة أفضل من الكلام فيها وأسلم . ثم روى باسناده إلى إسحاق بن منصور ، قال : قلت لأحمد بن حنبل : قوله صلى الله عليه وسلم « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن» ما وجهه ؟ فلم يقم لى فيها على أمر . وقال لى إسحاق بن راهويه : معناه : أن الله لما فضل كلامه على سائر الكلام ، جعل لبعضه أيضا فضلا في الثواب لمن قرأه ، تحريضا على تعليمه . لا أن من قرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات ، كان كمن قرأ القرآن جميعه . هذا لا يستقيم ، ولو قرأها مائتى مرة .

١١٣ — سورة الفلق

لما بين فيما سبق أنه الصمد : أى المقصود إليه فى كل أمر . أرشد هنا إلى الالتجاء إليه ، والاستعاذة به من شرور خلقه .

١١٤ — سورة الناس

تناسب سابقتها فى الاستعاذة ، وخصت بالاستعاذة من شر الوسواس الخناس ، لعظم ضرره ، ولجريانه من الإنسان مجرى الدم ، كما ثبت فى الحديث .

نعوذ بالله من شره ، ونسأله العصمة من ضرره .

« خاتمة »

وفيها مسألتان :

(الأولى)

فى فواتح السور . ألف فيها ابن أبى الأصبع كتابا سماه « الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح » .

قال أهل البيان : من البلاغة حسن الابتداء ، وهو أن يتأنق فى أول الكلام ، لأنه أول مايقرع السمع . فإن كان محررا ، أقبل السامع على الكلام ووعاه . وإلا أعرض عنه ، ولوكان الباقى فى نهاية الحسن . فينبغى أن يؤتى فيه بأعذب لفظ وأجزله ، وأرقه وأسلسه ، وأحسنه نظما وسبكاً ،وأصحه معنى ، وأوضحه وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير الملبس ، أوالذى لايناسب .

قالوا : وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه ، وأبلغها وأكملها . كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء وغير ذلك .

وبيان ذلك ـ على ماجمعه أبوشامة فى كتاب « المرشد الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز » ـ : أن الله تعالى افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام ، لايخرج شىء من السور عنها :

الأول : الثناء عليه تعالى ، والثناء قسمان : إثبات لصفات الكمال ونفى وتنزيه عن صفات النقص .

فالأول : التحميد فى خمس سور : الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر . وتبارك فى سورتين : الفرقان والملك .

والثانى : التسبيح فى سبع سور ، قال الكرمانى فى متشابه القرآن : التسبيح كلمة استأثر الله بها . فبدأ بالمصدر فى بنى إسرائيل ، لأنه الأصل . ثم بالماضى فى الحديد والحشر والصف ، لأنه أسبق الزمانين . ثم بالمضارع فى الجمعة والتغابن ، ثم بالأمر فى الأعلى ، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها .

الثانى : حروف الهجى فى تسع وعشرين سورة : البقرة وآل عمران والأعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر ومريم وطه والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة ويس وص وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف وق ون .

الثالث : النداء فى عشر سور : خمس بنداء الرسول : الأحزاب والطلاق والتحريم والمزمل والمدثر .

وخمس بنداء الأمة : النساء والمائدة والحج والحجرات والممتحنة .

الرابع : الجمل الخبرية فى ثلاث وعشرين سورة : الأنفال . التوبة . النحل . الأنبياء . المؤمنون . النور . الزمر . القتال . القمر . الرحمن . المجادلة . الحاقة . المعارج . نوح . القيامة . عبس . البلد . القدر . البينة . القارعة . ألهاكم . الكوثر .

الخامس : القسم فى خمس عشرة : سورة أقسم فيها بالملائكة . وهى : الصافات . وسورتان بالأفلاك : البروج والطارق . وست سور بلوازمها : فالنجم قسم بالثريا ، والفجر بمبدأ النهار ، والشمس بآية النهار ، والليل بشطر الزمان ، والضحى بشطر النهار والعصر بالشطر الآخر ، أو بجملة الزمان . وسورتان بالهواء الذى هو أحد العناصر ، والذاريات ، والمرسلات . وسورة بالتربة التى هى منها أيضا وهى والطور ، وسورة بالنبات ، وهى والتين ، وسورة بالحيوان الناطق ، وهى والنازعات ، وسورة بالبهيم . وهى والعاديات .

السادس : الشرط فى سبع سور : الواقعة . المنافقون . التكوير الانفطار . الانشقاق . الزلزلة . النصر .

السابع : الأمر فى ست سور : الجن . العلق . الكافرون . الإخلاص . المعوذتان .

الثامن : الاستفهام فى ست سور : الإنسان . النبأ . الغاشية . الشرح . الفيل . الماعون .

التاسع : الدعاء فى ثلاث سور : ويل للمطففين . ويل لكل همزة . تبت .

العاشر : التعليل فى لإيلاف قريش .

قال أبو شامة : وما ذكرناه فى قسم الدعاء ، يجوز أن يذكر مع الخبر . وكذا الثناء كله خبر ، إلا سبح ، فإنه يدخل فى قسم الأمر . وسبحانه يحتمل الأمر والخبر : ونظم ذلك فى بيتين فقال :

أثنى على نفسه سبحانه بثبو
ت الحمد والسلب لما استفتح السورا
والأمر والشرط والتعليل والقسم الد
عا حروف التهجى استفهم الخبرا

(الثانية)

فى خواتم السور

وهى مثل الفواتح فى الحسن ، لأنها آخر ما يقرع السمع[١] ولهذا جاءت متضمنة للمعانى البديعة ، مع إيذان السامع . بانتهاء الـكلام ، حتى لايبقى معه للنفوس تشوف إلى ما يذكر بعده . لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ووعد ووعيد ، إلى غير ذلك .

كتفصيل جملة المطلوب فى خاتمة الفاتحة . إذ المطلوب الأعلى الإيمان المحفوظ من المعاصى المسببة لغضب الله والضلال . ففصل جملة ذلك بقوله (الذين أنعمت عليهم) والمراد : المؤمنون ولذلك أطلق الإنعام ولم يقيده ، ليتناول كل إنعام لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان ، فقد أنعم عليه بـكل نعمة ، لأنها مستتبعة لجميع النعم . ثم وصفهم بقوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يعنى أنهم جمعوا بين النعم المطلقة ، وهى نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله

---

(١) قال الخطيب القزوينى فى الايضاح : جميع فواتح السور وخواتمها ، واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها . يظهر ذلك بالتأمل فيها مع التدبر لما تقدم من الأصول .

تعالى والضلال المسببين عن معاصيه وتعدى حدوده . وكالدعاء الذى اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة . وكالوصايا التى ختمت بها آل عمران (ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) وكالفرائض التى ختمت بها سورة النساء ، وحسن الختم بها ، لما فيها من أحكام الموت الذى هو آخر أمر كل حى ، ولأنها آخر ما نزل من أحكام .

وكالتبجيل والتعظيم الذى ختمت به المائدة. وكالوعد والوعيدالذى ختمت به الأنعام ، وكالتحريض على العبادة بوصف حال الملائكة ، الذى ختمت به الأعراف . وكالحض على الجهاد ، وصلة الأرحام الذى ختمت به الأنفال . وكوصف الرسول والتهليل اللذين ختمت بهما التوبة . وكتسليته عليه الصلاة والسلام التى ختمت بها سورتا يونس وهود ، وكوصف القرآن ومدحه الذى ختمت به سورة يوسف . وكالوعيد والرد على من كذب الرسول، اللذين ختمت بهماسورة الرعد. وكالثناء على الله تعالى ، الذى ختمت به الإسراء ، ومثلها سورتا الحج والحشر . ومن أوضح ما آذن بالختام خاتمة إبراهيم(هذا بلاغ للناس) الآية . ومثلها خاتمة الأحقاف (بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وكذا خاتمة الحجر بقوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) فسر بالموت ، وهذة الخاتمة فى غاية البراعة .

وخاتمة الشورى مثلها ، (ألا إلى الله تصير الأمور) وسورة الزلزلة بدئت بوصف أهوال يوم القيامة ، وختمت بقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وهى خاتمة فى منتهى البراعة . وكذلك خاتمة سورة النصر ، فيها إيذان بالوفاة (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) وهى خاتمة بديعة . روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس ، قال : كان عمر رضى الله عنه يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ؟ ولنا أبناء مثله ، فقال عمر : إنه من قد علمتم . ثم دعاهم ذات يوم . فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح) ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئا . فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ . قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه له . قال : (إذا جاء نصر الله والفتح) وذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فقال عمر رضى الله عنه : إنى لا أعلم منها إلا ما تقول . قلت : ولهذا كانت ربع القرآن كما جاء فى الحديث السابق ، أى ربع الإيمان الذى يدعو إليه القرآن ، كما مر عن العارف ابن الميلق فى سورة الزلزلة .

وهكذا كل سورة تجد خاتمتها فى غاية الحسن والبراعة . أحسن الله خاتمتنا بالوفاة على الإيمان ، وفرج كربتنا ، وجعلها كفارة لنا عما اقترفناه ، وبيض وجهنا ، يوم نلقاه .

كان الفراغ من تحريره مساء يوم الأربعاء الثالث من شهر ذى القعدة الحرام ، من شهور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وألف هجرية . أحسن الله خاتمتها ، آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

« تتميم »

علمت مما مر في الكتاب ومقدمته : أن آيات القرآن الكريم وسوره ، تتسق في تناسب عجيب ، وترتبط بعضها مع بعض ، في تآلف بديع غريب ، بحيث لو وضعت آية مكان غيرها ، أو سورة في غير موضعها ، اختل الاتساق والتناسب ، وتفكك الإرتباط والتآلف . وهذا مما اختص به القرآن العظيم ، وكان وجها من وجوه إعجازه المتعددة . فينبغي لتاليه أن يراعي هذا المعنى في تلاوته ، فلا ينتقل من سورة إلى تاليتها حتى يتمها .

ومن هنا تدرك خطأ بعض المقرئين الذين ينتقلون من سورة إلى غيرها ، غير مراعين ذلك . فبينما يتلو أحدهم سورة من السبع الطوال ، أو المثين ، ينتقل فجأة إلى سورة من طوال المفصل ، أو قصاره ، ولا يدرك ما في انتقاله من إخلال بالمناسبة المقصودة ، وفصم للارتباط المطلوب . وإنما يدركه العلماء المتخصصون في علوم القرآن ، وتفهم أسراره ، بل يشاهده عيانا أهل البصائر المنورة بنور المعرفة .

ذكر العارف الشعراني في ترجمة الشيخ محمد بن أحمد الفرغل من طبقاته : أن فقيها جلس عنده يقرأ القرآن ، فنط الفقيه . فقال له

الشيخ : نطّيت . فقال له : من أعلمك ياسيدى وأنت لاتحفظ القرآن ؟ فقال : كنت أرى نورا متصلا صاعداً إلى السماء ، فانقطع النور ولم يتصل بما بعده .

وذكر لى سيدنا الأستاذ الإمام الوالد رضى الله عنه : أن الولى الكبير السيد الهاشمى بوزيد ـ من تلاميذ جدنا القطب الكبير سيدى الحاج أحمد ـ كان جالسا بمسجد بعد صلاة المغرب وجماعة يقرأون القرآن بصوت مرتفع ، فانتقلوا من سورة إلى أخرى بسبب آية أشكلت عليهم . فصفق السيد الهاشمى بيده ينبههم إلى خطئهم . فتنبهوا ورجعوا . فسأله أحد الحاضرين : كيف عرف خطأهم وهو لا يحفظ القرآن؟ فقال : كنت أرى نورا صاعداً مع تلاوتهم ، فى استقامة واستواء . فلما انتقلوا حصل فى النور اضطراب ، ووصل بعد انقطاع ، فعرفت خطأهم ، قلت : هذا من الكشف المؤيد بالدليل ، فالقرآن نور حسى ومعنوى ، ومن أسمائه : النور . وإذا قرىء فى مكان ، غشيته سكينة ونور .

وقريب من هذا : أننى كنت ألقى دروسا حديثية ، بأويش الحجر بجهة المنصورة . فذكر بعض الصالحين من المفتوح عليهم : أنه كان يرى النور يخرج مع تلاوتى للحديث ، منذ البدء فى ذكر إسناده إلى الإنتهاء منه .

الفهرس

صحيفة

صحيفة

اطلبوا من مكتبة القاهرة مؤلفات الشيخ الصديق :

شن الغارة على بدعة أذان الجمعة عند المنبر والمنارة
سبل الهدى فى إبطال حديث اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا
الإفضال والمنة فى رؤية النساء لله تعالى فى الجنة
المغير على الأحاديث الموضوعة فى الجامع الصغير
إقامة الدليل على حرمة التمثيل
المعجم الوجيز للمستجيز
مسالك الدلالة فى شرح الرسالة بالآيات
بر الولدين (الأحاديث الواردة فى بيان فضل الوالدين)
إعلام النبيل بجواز التقبيل
الباحث عن علل الطعن فى الحارث
عقيدة أهل الإسلام فى نزول عيسى عليه السلام
تعليق على كتاب الإكليل فى شرح خليل للعلا
إتحاف ذوى الهمم العلية فى شرح العشماوية ف القران
الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين
تمام المنة فى بيان الخصال الموجبة للجنة
بدع التفاسير .
دلالة القرآن المبين على أن النبى أفضل العالمين ومعه النفحة الإلهية فى الصلاة على خير البرية
خواطر دينية